شرح حديث أبي الدرداء في فضل العلم والعلماء

دار اللباب

المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة (م)

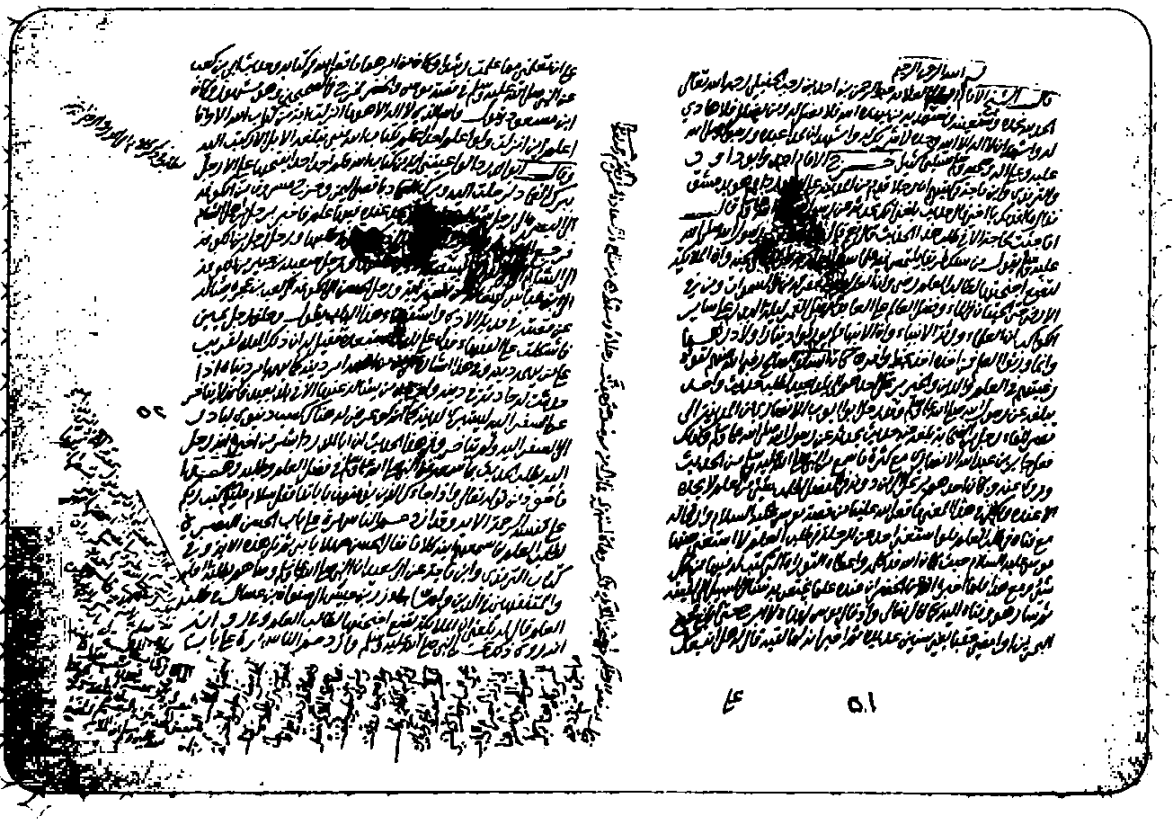

مكتبة الرياض العامة بدار الإفتاء بالرياض (ض)

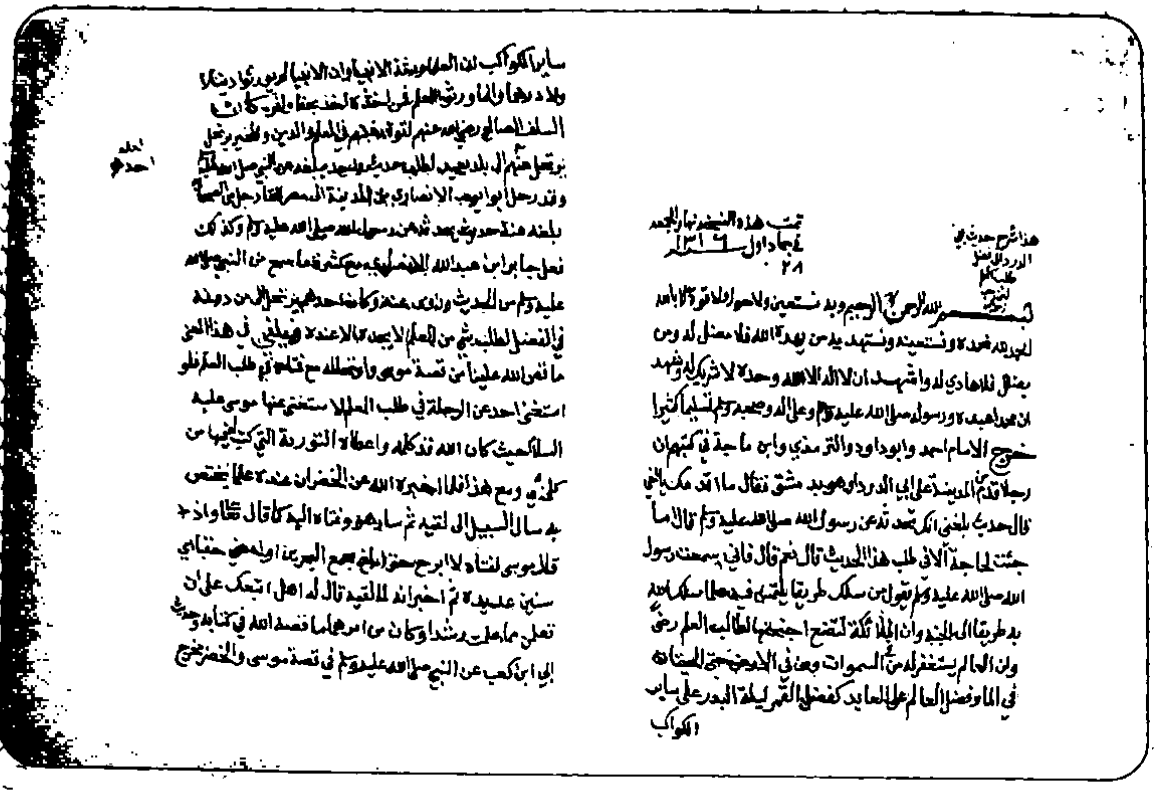

مكتبة الرياض العامة (هـ)

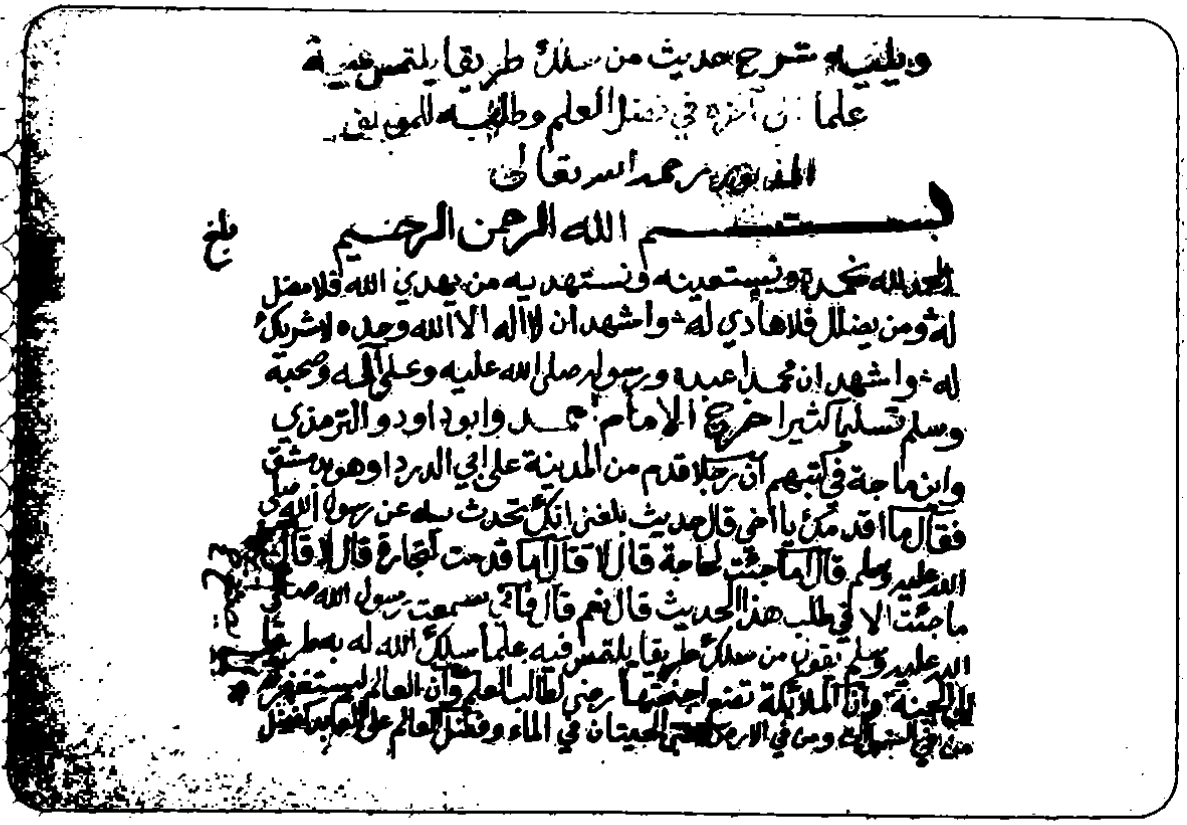

مكتبة جامعة الرياض ثم جامعة الملك سعود (س)

مكتبة الرياض (ط)

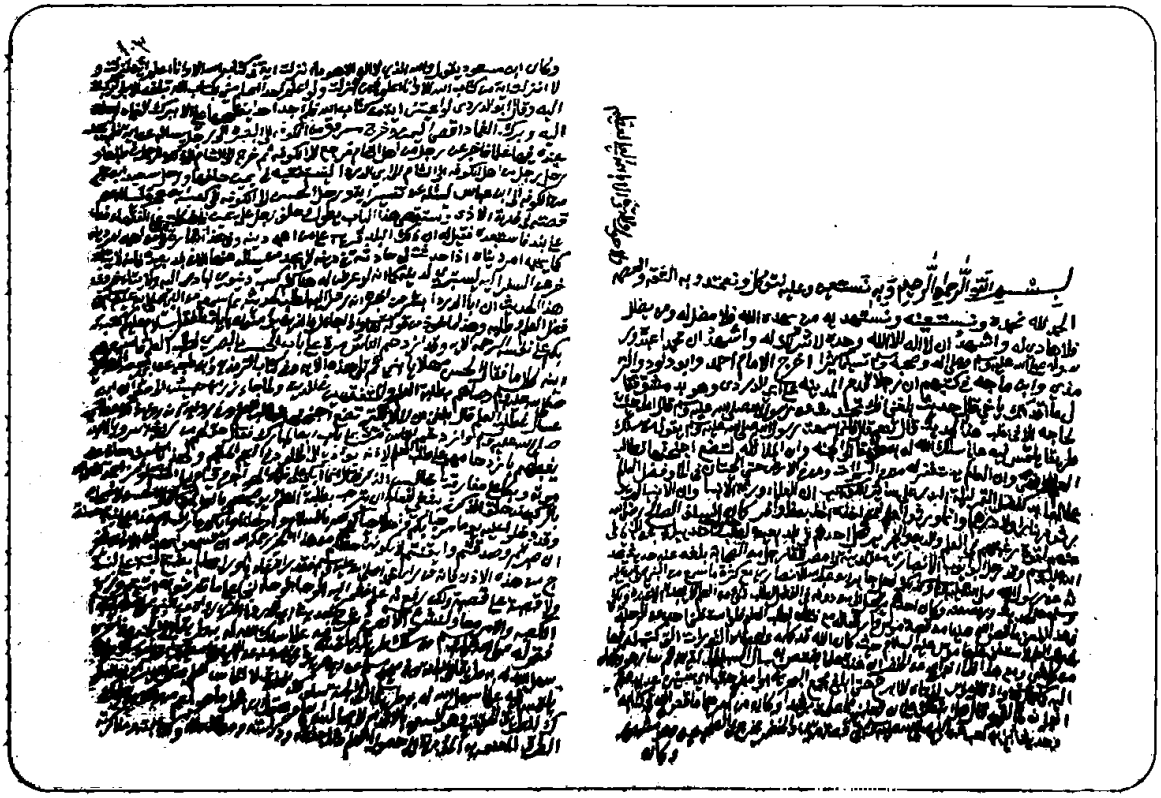

مركز جمعة الماجد (ج)

وعلى نبينا الصلاة والسلام، ويندرج تحت ذلك: معرفة فضلها، واحتساب أجرها، والتأدب بآدابها من العالم ومن المتعلم.

ـ **تمييز العلم النافع عما سواه**: وإنما العلمُ النافعُ ما أورثَ صاحبه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته، وإجلاله، وتعظيمه، ومحبته، فكان لشرع الله طائعاً، ولله تعالى خاشعاً، وبقربه سبحانه طامعاً.

ـ **معرفة شرف العلم وفضله والقيام بحقه**: وأن الخلائق من الملائكة فمن دونهم حتى الحيتان تُعظِّم طالب العلم، وتستغفر له؛ فيدعو ذلك طالبَ العلم إلى معرفة هذه النعمة وشكرها بالقيام بحقها، والتواضع للخلائق، والرحمة لهم، والشفقة عليهم، كما أن هذا يدل أيضاً على مدى السوء والكبر والبغي عند العصاة ممن يُبغضون مَنْ أحبه الخالق واستغفرت له الخلائق.

ـ **فضل العالم على العابد، وفضل العلم على العبادة**: وذلك فيما فَضَل على الفريضة منها، وفي فهم هذا سبيل النجاة مما يعرض للناس من الخطأ في تصوراتهم في هذا الباب.

ـ **العلماء ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم**: وهذا مما جاء في الكتاب العزيز، وأشار إليه قول الله جل جلاله ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقوله عن زكريا ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤ـ٥]. وهذا ميراث العلم والنبوة لا المال باتفاق العلماء. وعلماء الأمة ورثوا علم نبيهم ﷺ، وهذا من عظيم التشريف، لكن وراءه ثقيل التكليف، فمن لم يراع حق التكليف لم يحظ بذلك التشريف.

إن يقظة الأمة من سباتها، ونهضتها من كبواتها ونكباتها لا تكون إلا بأن يسبقها

علماؤها إلى ذلك، وما لـم يـع الناس حقيقة العلم وحقيقة العالم؛ فإنهم على شفا هلكة باتِّباعهم السُّبل التي تفرَّق بهم عن سبيل الله.

وعلى الله قصد السبيل.

* * *

لم يذكر هذه الرسالة أحد ممن ترجم للحافظ ابن رجب رحمه الله، وقد ذكر خلاصة مقاصدها في كتابه «جامع العلوم والحكم» في شرح الحديث السادس والثلاثين حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢/ ٢٩٦ ـ ٣٠٠).

وقد اعتمدت في تحقيق الرسالة على ست نسخ خطية:

١ ـ نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام، ورمزها (م)، وأثبتُّ عنوان الكتاب كما جاء فيها.

وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (١٧٤٢) ـ وقد تقدم التعريف بـه في المقدمات ـ، تقع في (٣٩) لوحة (من ٧٩/ أ إلى ١١٧/ ب).

وهي بخط أحمد بن محمد بن خضر القطان النجاد الحنبلي، كتبت في القرن التاسع الهجري، ففي المجموع سماع بتاريخ ٨٣٦.

٢ ـ نسخة مكتبة الرياض العامة بدار الإفتاء بالرياض، ورمزها (ض)، وهـي الرسالة الرابعة من مجموع رقمه (٦٨٦/ ٨٦) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات، ولم يُذكر فيها عنوان الرسالة. وتقع في (١٦) لوحة (من ٢٧/ أ إلى ٤٢/ ب).

وهي بخط إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، في شهر ربيع الأول ١٢٥٤. وبحاشيتها عناوين تدل على عناية صاحبها.

٣ ـ نسخة مكتبة الرياض العامة، ورد إليها من مكتبة الشيخ محمد بن إبراهيم، ورمزها (هـ)، وهي الرسالة العاشرة من مجموع رقمه (٢٦٩/ ٨٦)، وجاء العنوان فيها: «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم». وتقع في ٢٦ لوحة. لم يذكر الناسخ اسمه، وتاريخها: الجمعة ٤ جمادى الآخرة ١٣١٦.

٤ ـ نسخة مكتبة جامعة الرياض (ثم جامعة الملك سعود)، ورمزها (س)، وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (١٦٣٧) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات. وعنوان الرسالة فيها «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وتقع في ١٦ لوحة (من ص: ١٠٩ إلى ص: ١٣٩)، وهي بخط عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة الربيعي. ووقع تاريخ الرسالة التي تليها في المجموع ـ ذم المال والجاه ـ في رجب ١٣٣٣. وهي مقابلة ومصححة على نسختين.

٥ ـ نسخة مكتبة الرياض السعودية، ورمزها (ط)، وهي الرسالة الخامسة من مجموع رقمه (٥٢٧/ ٨٦) ـ وقد تقدم التعريف به في المقدمات ـ، وكانت في حوزة الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ، وعنوان الرسالة فيها: «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وتقع في (١٨) لوحة، وهي كثيرة التصحيف والأغلاط، ويبدو أنها منقولة من النسخة (س) لتطابقهما حتى في العنوان. لم يُذكر اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، لكنه في حدود (١٣٣٦) كما في رسائل أخرى من المجموع.

٦ ـ مصورة مكتبة جمعة الماجد (٩١٦٩١٢)، ورمزها (ج) وهي ضمن مجموع، يسبقها رسالة «تحقيق كلمة الإخلاص» للمصنف رحمه الله. وعنوان الرسالة فيها: «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم». وتقع في (١٣) لوحة (من ١٠٣/ أ

إلى ١١٤/ أ). لم يُذكر اسم الناسخ، وأما تاريخ النسخ فهو ١٠ صفر ١٣٣٩، وهي كثيرة التصحيف والأغلاط، وتتوافق كثيراً مع النسخة (هـ).

وثمة نسخ أخرى منها.

ـ نسخة في ضمن كتاب «الكواكب الدراري» لابن عروة الحنبلي في المجلد (٢٨) منه.

ـ نسخة المكتبة الصديقية بحلب، وهي الآن في المكتبة العامة بدمشق (١٧٣٩٥ت١) ضمن مجموع بخط فارسي (١٧ ورقة) (من ٢٢ إلى ٣٨)، مسطرتها: ١٩ سطراً.

ـ نسخة بغدادية، في مكتبة الأوقاف العامة (٤٧٦٧/ ١٥) في ١٤ صفحة.

ـ نسخ نجدية متأخرة.

وقد نَشَر الكتاب قديماً بمكة المكرمة: الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، ثم نشره السيد محب الدين الخطيب بمصر ١٣٤٧، ثم الأستاذ محمد مفيد الخيمي بدمشق ـ دار الخافقين ـ ١٤٠٢، ثم الأستاذ أشرف عبد المقصود بالقاهرة ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ ١٤٠٧، لكنه سمَّى الكتاب بما لم يسمه به مؤلفه، ولا يوجد في شيء من نسخه الخطية: «ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء» بل هو اجتهاد منه أو من الناشر، وعنه أثبت ذلك ناشر المجموع، فلينتبه لذلك. ولم نقابل نسختنا هذه بشيء من تلك المطبوعات.

والله تعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

قال الشيخُ الإمامُ العالمُ العلَّامة، شيخُ الإسلام، أبو الفرجِ عبدُ الرحمن ابنُ الشيخِ الإمامِ الزَّاهدِ أبي العباس أحمدَ بنِ رجبٍ الحنبليُّ رحمه الله ورضي عنه[1]:

الحمدُ للهِ نحمدُه ونستعينُه ونستهديه، مَن يهدِه اللهُ فلا مضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ، وابنُ ماجه في كُتُبِهم: أنَّ رجلًا قَدِمَ منَ المدينةِ على أبي الدَّرداءِ وهو بدمشقَ، فقالَ: ما أقدَمَكَ يا أخي؟ قالَ: حَديثٌ

---

(١) هذه مقدمة النسخة (م). وفي (ض): «قال الشيخ الإمام العالم العلامة عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى». وفي (هـ): «هذا شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم، لابن رجب رحمه الله. بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ولا شيء في (س) و(ط)، وجاء العنوان فيهما: «شرح حديث من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلى آخره في فضل العلم وطلبه».

وفي (ج): «شرحُ حديثِ أبي الدَّرداءِ في فضلِ طلَبِ العلمِ، تأليفُ الشَّيخِ العالمِ العلّامةِ والبحرِ الفهّامةِ أبو الفرجِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ أحمدَ بنِ رجَبٍ الحنبليُّ رحمَه اللهُ تعالى وعفى عنه بمنِّه وكَرَمِه. بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ وبه نستعينُ وعليه نتوكَّلُ ونعتَمِدُ، وبه الثِّقةُ والعِصمةُ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ».

بلَغَني أنَّكَ تحدِّثه[١] عن رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: أما جئْتَ لحاجةٍ؟ قالَ: لا، قالَ: أما قدِمتَ لِتجارةٍ؟ قالَ: لا، قالَ: ما جِئتَ[٢] إلّا في طَلَبِ هذا الحديثِ؟ قالَ: نعم، قالَ: فإنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَلَكَ اللهُ لهُ به طَريقًا إلى الجَنّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضع[٣] أجنِحتَها لطالِبِ العِلمِ رضىً[٤]، وإنَّ العالِمَ لَيستغفِرُ[٥] له مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ العالِمِ على العابِدِ كفَضْلِ القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ على سائِرِ الكَواكِبِ، إنَّ العُلماءَ[٦] ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دِينارًا ولا دِرهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافِرٍ»[٧].

---

(١) في (س) و(ط): «تحدث به»، وفي (ج): «تحدث».

(٢) قوله: «قال: لا، قال: أما قدمت لتجارة؟ قالَ: لا، قالَ: ما جئتَ» من (س) وحدها، ولا توجد في سائر نسخنا، وهي ثابتة في «المسند» و«الترمذي» لذلك أثبتها في الصلب.

(٣) في (س) و(ط): «تضع».

(٤) في (س) و(ط): «رضى لطالب العلم لما يصنع»، وفي الترمذي: «رضا لطالب العلم». ونقله ابن الملقن في «التوضيح» (٣/ ٣٢٢) عن الترمذي كما هو المثبت هنا.

(٥) في (هـ) و(ج): «يستغفر».

(٦) في (س) و(ط): «وإن».

(٧) مدار الحديث على عاصم بن رجاء بن حيوة:

أخرجه الإمام أحمد (٢١٧١٥)، والترمذي (٢٦٨٢) عنه، عن قيس بن كثير، عن أبي الدرداء.

وأخرجه أبو داود (٣٦٣٦)، وابن ماجه (٢٢٣) عنه، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس، به.

قال الترمذي بعد روايته: «وليس هو عندي بمتصل»، وذكر أن من رواه بزيادة ـ داود بن جميل ـ أصح. قال: «ورأي محمد بن إسماعيل: هذا أصح» أي بدون الزيادة.

وذكر البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»، باب العلم قبل القول والعمل (١٠) جملاً منه ولم يذكرها عن النبي ﷺ.

وقد عقد الإمام ابن عبد البر فصلاً في «جامع بيان العلم وفضله» لهذا الحديث، وبيَّن علله.

كانَ[١] السَّلفُ الصَّالحُ رَضِيَ اللهُ عنهم لِقوّةِ رَغبتِهم في العِلمِ والدِّينِ والخَيرِ يرتَحِلُ أحدُهم إلى بلَدٍ بَعيدٍ، لطَلَبِ حديثٍ واحدٍ يبلُغُه عنِ النَّبيِّ ﷺ[٢]، وقد رَحَلَ أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ منَ المدينةِ إلى مصرَ للقاءِ رَجُلٍ منَ الصَّحابةِ بلغَه عنه حديثٌ يُحدِّثُه عنِ النَّبيِّ ﷺ[٣]، وكذلكَ فعلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ، معَ كَثرةِ ما سَمِعَ منَ النَّبيِّ ﷺ منَ الحديثِ ورَوَى عنه[٤].

وكانَ أحدُهم يرحَلُ[٥] إلى مَن دُونَه في الفَضلِ[٦]؛ لطَلَبِ شيءٍ منَ العِلمِ لا يجدُه إلّا عندَه، ويكفي في هذا المعنى ما قصَّ اللهُ علينا من قِصّةِ موسَى وارتحالِه معَ فتاهُ في طلب العِلمِ، فلو استغنى أحدٌ عنِ الرِّحلةِ في طَلَبِ العِلمِ لاستغنى عنها موسى عليه السَّلامُ، حيثُ كانَ اللهُ قد كلَّمَه، وأعطاه التَّوراةَ التي كتَبَ له فيها من كلِّ شيءٍ، ومعَ هذا فلمّا أخبرَه اللهُ عزَّ وجلَّ عنِ الخَضِرِ أنَّ عندَه عِلمًا يختَصُّ به سألَ السَّبيلَ إلى لُقيِّه[٧]، ثمَّ سارَ هو وفتاه إليه، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] يعني: سِنينَ عديدةً،

---

(١) في (س) و(ط): «وكان».

(٢) وقد جمع ذلك الحافظ البغدادي في جزء «الرحلة في طلب الحديث الواحد» مطبوعة بتحقيق شيخنا العلامة نور الدين عتر رحمه الله.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٥٤)، والصحابي هو عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) علقه البخاري في كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم (١٩) رحل إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، وعلقه أيضاً بعد حديث (٧٤٨١). والحديث أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢).

(٥) في (ض) و(هـ) و(ج): «يرتحل».

(٦) زاد ناسخ (س) و(ط): «والعلم».

(٧) في حاشية (س) إشارة إلى نسخة (لقائه). والصواب المثبت.

ثم أخبرَ أنَّه لمّا لَقِيَه قالَ له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] وكان مِن أمرِهما ما قصَّه اللهُ في كتابِه.

وحديثُ أُبيِّ بنِ كَعبٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ في قِصّةِ موسى والخَضَرِ مخرَّجٌ في الصَّحيحَينِ، وهو مشهورٌ[١].

وكانَ ابنُ مسعودٍ يقولُ: واللهِ الذي لا إلهَ إلّا هوَ ما أُنزِلَت سورةٌ من كتابِ اللهِ إلّا وأنا أعلَمُ أينَ أنزلت، ولا أُنزلت آيةٌ من كتابِ اللهِ إلّا وأنا أعلمُ فيما[٢] أُنزِلَت، ولو أعلمُ أحدًا أعلمَ منِّي بكتابِ اللهِ تَبلُغُه الإبلُ لَرَكبتُ إليه[٣].

وقالَ أبو الدَّرداءِ: لو أَعيَتْني آيةٌ من كتابِ اللهِ فلَم أجِدْ أحدًا يفتَحُها عليَّ إلّا رجلًا[٤] بِبِرْكِ الغُماد لرَحَلْتُ إليه. وبِرْكُ الغُمادِ: أقصَى اليَمَنِ[٥].

وخرجَ مسروقٌ منَ الكوفةِ إلى البَصرةِ إلى رجلٍ يسأله عن آيةٍ فلم يجِدْ عندَه فيها عِلمًا، فأُخبِرَ عن رجلٍ من أهلِ الشّامِ، فرَجَعَ إلى الكوفةِ، ثمَّ خرَجَ إلى الشّامِ إلى ذلكَ الرَّجلِ في طَلَبِها[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) في (ج): «فيمن».

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٤) المثبت من (م)، وفي جميع النسخ: «رجلٌ»!

(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ١٠١)، وضَبْطُ (بِرك الغُماد) منه. وذكر غيره الضمَّ والفتح. وفي (م) ضبطت بالقلم بفتح الراء وكسر الغين. وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (شرح الحديث ٣٩٠٥).

(٦) أخرجه ابن أبي خيثمة في «تاريخه» (السفر الثالث ٤٠٤٠).

ورحلَ رجلٌ منَ الكوفةِ إلى الشّامِ إلى أبي الدَّرْداءِ، ليستفتيه[١] في يَمينٍ حَلَفَها[٢].

ورحلَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ منَ الكوفةِ إلى ابنِ عبّاسٍ ليسأله عن تفسيرِ آيةٍ[٣].

ورحلَ الحسنُ إلى الكوفةِ إلى كَعبِ بنِ عُجرةَ ليسألَه عن قصَّته في فِديةِ الأذَى[٤]. واستقصاءُ هذا البابِ يطولُ.

وحلفَ رجلٌ بيمين[٥] فأشكَلَت على الفُقهاءِ، فدُلَّ على بَلَدٍ فاستبعَدَه، فقِيلَ له: إنَّ ذلكَ البلَدَ قريبٌ على مَن أهمَّه دِينُه.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مَن أهمَّه أمرُ دِينِه كما يهمُّه أمرُ دُنياهُ، إذا حَدَثَت له حادِثةٌ في دِينِه لا يجِدُ مَن يسألُه عنها إلّا في بَلَدٍ بعيدٍ فإنَّه لا يتأخَّرُ عنِ السَّفرِ إليه؛ ليستَبرِئَ لدِينِه، كما أنَّه لو عَرَضَ له هناكَ كَسْبٌ دُنيويٌّ لَبادَرَ إلى السَّفرَ إليه ولم يتأخَّرُ.

* * *

---

(١) في (س) و(ط): «يستفتيه».

(٢) أخرج ابن أبي شيبة (١٩٣٩٩) عن أبي عبد الرحمن السلمي، في قصة: أن امرأة حلفت أن طعام ابنها وشرابه عليها حرام حتى يطلق امرأته، وأخرجه الإمام أحمد (٢١٧١٧) من وجه آخر: أن والديه أمراه بتطليق امرأته، فجعل عليه مئة محرر، فأتى أبا الدرداء...

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٩٠)، ومسلم (٣٠٢٣). والآية في خلود القاتل في النار.

(٤) أخرجه الخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» (٥٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٠/ ١٤٧).

(٥) المثبت من (م)، وفي (هـ) و(ج): «على يمين»، وفي (ض) و(س) و(ط): «رجل يمين»!

وفي هذا الحديثِ: أنَّ أبا الدَّرداءِ بشَّرَ مَن أخبرَه أنَّه رَحَلَ إليه لِطلَبِ الحديث بما سَمِعَه من النَّبيِّ ﷺ في فضلِ العِلمِ وطَلَبِه، وهذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية.

وقد ازدَحَمَ النّاسُ مرّةً على بابِ الحَسنِ البَصريِّ لِطَلَبِ العِلمِ، فأسمعَهم ابنُه كلامًا، فقالَ الحَسنُ: مهلًا يا بُنيَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ[1].

وفي كتابِ التِّرمذيِّ، وابنِ ماجَه، عن أبي سعيدٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ وَصّاهم بطَلَبةِ العِلمِ والمتفقِّهينَ في الدِّينِ[2].

ولما جاءَ زِرُّ بنُ حُبيشٍ إلى صَفوانَ بنِ عَسّالٍ في طَلَبِ العِلمِ قالَ له: بلغَني «أنَّ الملائكةَ تضعُ أجنحتَها لطالِبِ العِلمِ»[3]، وفي رِوايةٍ: أنَّه روَى له ذلكَ عنِ النَّبيِّ ﷺ[4].

---

(١) أخرج ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٣٠٩) أثراً في ازدحام الناس على درجة الحسن رحمه الله، ونهر ابنه لهم، لكن ليس فيه أنه تلا الآية، بل فيه اعتذاره عن تجديد بنائه لهم.
وأما تلاوة هذه الآية ترحيباً بطلاب العلم، فأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢١) عن أبي العالية رحمه الله.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠) (٢٦٥١)، وابن ماجه (٢٤٧) (٢٤٩) من حديث أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد، فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٨١٠٠)، والترمذي (٣٥٣٥) (٣٥٣٦) مطولًا وذكر أحاديث، وقال: حسن صحيح، والنسائي (١٥٨).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٨٠٨٩)، وابن ماجه (٢٢٦).

وفي حاشية (ض): «قال أبو حاتم الرازي: سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: =

وازدَحَمَ النّاسُ مرّةً على بابِ ابنِ المباركِ فقالَ: حُقَّ لهم. من ورائه[١] سُرورُ الأبَدِ[٢]. يغبِطُهُم بازدحامِهم على طَلَبِ العِلمِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى الخُلودِ في النَّعيمِ المقيمِ. ولهذا تأسَّفَ معاذٌ عندَ موتِه وبكَى على مفارقةِ مجالِسِ الذِّكرِ، فقالَ: إنَّما أبكي على ظَمَأِ الهواجِرِ، وقيامِ ليلِ الشِّتاءِ، ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكبِ عندَ حِلَقِ الذِّكرِ[٣].

وينبغي للعالِمِ أن يترحَّبَ[٤] بطلَبةِ العِلمِ، ويوصيَهم بالعَملِ به، كما قالَ الحسنُ

= معنى قول رسول الله ﷺ «تضع أجنحتها»: يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة» (٢١٥٤) له: ثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنا عند بعض المحدثين بالبصرة، فحدثنا بحديث النبي ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزئ بالحديث، فقال: والله لأقطرنَّ غداً نعلي فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين، فجفَّت رجلاه جميعاً، ووقعت في رجليه الأَكَلة.

وقال الطبراني: سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي قال: كنا نمشي في أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجلٌ ماجن، متهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة، لا تكسروها! كالمستهزئ. فما زال منه موضعه حتى جفَّت رجلاه، وسقط. من «مفتاح دار السعادة» للشمس ابن القيم رحمه الله تعالى».

وهو في «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة» (١/ ١٧٣) ط: عطاءات العلم.

ومعنى أقطرن: أي يريد طلائها بالقطران.

(١) المثبت من (م). وتصحفت في (ض) و(هـ) و(ج) إلى: «رواية»، وفي (س) و(ط) إلى: «ولاية» وفي حاشيتهما «رؤية»! وكل ذلك تصحيف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٠١١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٣٩) (٥/ ١٠٣).

(٤) في (س) و(ط): «يرحِّب».

لأصحابِه وقد دخَلوا عليه يومًا: مرحبًا بكم وأهلًا، حيّاكم اللهُ بالسَّلامِ، وأدخَلَنا وإيّاكم دارَ السَّلامِ، هذه عَلانيةٌ حسنةٌ أن صَبرْتم وصَدقْتم وأيقَنْتم، لا يكونَنَّ حظُّكم من هذا الخَيرِ رحمَكُم اللهُ أن تسمعوه[١] بهذه الأذُنِ فيخرُجَ من هذه الأذُنِ، فإنَّه مَن رأى محمَّدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ، ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، ولكنْ رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه، الوَحا الوَحا، النَّجا النَّجا، عَلامَ تُعرِّجونَ[٢]؟ أتَيتُم ورَبِّ الكَعبةِ كأنَّكم والأمرُ معًا[٣].

* * *

ولْنشرَعِ الآنَ في شرحِ حديثِ أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه الذي رواه عنِ النَّبيِّ ﷺ.

فقولُه ﷺ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَلَكَ اللهُ له بهِ طَريقًا إلى الجَنّةِ».

وفي روايةٍ أخرى: «**سهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجنّةِ**»[٤].

وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَن سَلَكَ طَريقًا يلتَمِسُ فيه عِلمًا سَهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجنّةِ»[٥].

سُلُوكُ الطَريقِ لالتماسِ العِلمِ، يحتَمِلُ أن يُرادَ به: السُّلوكُ[٦] الحقيقيُّ، وهو

---

(١) في (ض) و(هـ) و(ج): «تسمعوا»، وفي (س) و(ط): «تستمعوه».

(٢) في حاشية (س) و(ض) و(هـ) و(ج): «تعرضون».

(٣) الوحا: السرعة والاستعجال. وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٦)، وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٧٦).

(٤) عند ابن ماجه.

(٥) «صحيح مسلم» (٢٦٩٩).

(٦) في (ج) وحدها: «السلوك للطريق».

السعي[١] بالأقدامِ إلى مجالِسِ العلمِ، ويحتَمِلُ أن يشمَلَ ما هو أعمُّ من ذلكَ من سُلوكِ الطرق[٢] المعنويّةِ المؤدِّيةِ إلى حُصولِ العلمِ، مثلُ حفظِه، ودِراستِه، ومطالعتِه، وكتابتِه، ومذاكرتِه، والتَّفهُّمِ له، والتَّفكُّرِ فيه، ونحوِ ذلكَ من الطُّرُقِ التي يُتَوصَّلُ بها إلى العلمِ.

وأمَّا قولُه: «سَهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجنّةِ» فإنَّه يحتَمِلُ أمورًا:

منها: أن يُسهِّلَ اللهُ لطالبِ العِلمِ العِلمَ الذي طلبَه وسَلَكَ طريقَه، وييسِّرَه عليه، فإنَّ العِلمَ طريقٌ موصِلٌ إلى الجنّةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] قالَ طائفةٌ منَ السَّلفِ في هذه الآيةِ: هل من طالِبِ علمٍ فيُعانَ عليه[٣].

ومنها: أن ييسِّرَ اللهُ لطالبِ العِلمِ العملَ بمقتضى العلمِ[٤]، إذا قصَدَ بتعلُّمِه وجهَ اللهِ، فيجعلُه اللهُ سببًا لهدايتِه والانتفاعِ به والعملِ به، وذلك من طُرُقِ الجنّةِ الموصِلةِ إليها.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى ييسِّرُ لطالبِ العلمِ الذي يطلُبُه[٥] للعمَلِ به علومًا أُخرَ ينتفِعُ بها، فيكونُ ذلك طريقًا موصِلًا إلى الجنّةِ، وهذا كما قيلَ: مَن عَمِلَ

---

(١) في (س) و(ط): «المشي».

(٢) في (هـ) و(س) و(ط): «الطريق».

(٣) علقه البخاري في «صحيحه» عن مطر الوراق، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قبل حديث (٧٥٥١). وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٣١) عن مطر، ونحوه أيضاً عن قتادة.

(٤) في (س) و(ط): «ذلك العلم».

(٥) في (ض) و(ج): «طلبه». وفي (م): «للطالبِ العلمَ الذي يطلبه».

بما عَلِمَ أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يكن يعلَمْ[١]، وكما يقالُ: ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بعدَها[٢]، وإلى هذا الإشارةُ[٣] بقولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فمَن التمسَ العِلمَ ليهتَدِيَ به زادَه اللهُ هدًى وعلومًا نافعةً، تُوجِبُ له أعمالًا صالحةً، وكلُّ هذه طُرُقٌ موصِلةٌ إلى الجنّةِ.

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى قد ييسِّرُ على طالبِ العِلمِ[٤] للانتفاعِ به في الآخرةِ سلوكَ[٥] الطَّريقِ الحسِّيِّ المفضي إلى الجنّةِ، وهو الصِّراطُ، وما بعدَه وما قبلَه منَ الأهوالِ العظيمةِ والعَقباتِ الشَّديدةِ الشّاقّةِ.

وسَببُ تيسيرِ طريقِ الجنّةِ على طالبِ العِلمِ إذا أرادَ به وجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) في (هـ) و(س) و(ط) و(ج): «لم يعلم». وأخرج أبو نعيم في حكاية ذكرها في «الحلية» (١٠/ ١٥) أن أحمد بن حنبل ذكر عن يزيد بن هارون، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم» قال أبو نعيم: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

وأخرج ابن المقرئ في «معجمه» (٣١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٦٣) عن عبد الواحد بن زيد قال: كان يقال: من عمل بما علم فتح له علم ما لا يعلم.

وأخرج أبو عثمان البحيري في «فوائده» (٢١) عن الفضيل: من عملَ بما علم وفقه الله لما لا يعلم.

(٢) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٣٨٢)، ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٢٩) من كلام أبي الحسن علي بن محمد المزين.

(٣) في (هـ) و(ج): «أشار».

(٤) المثبت من (م)، وفي سائر النسخ «لطالب».

(٥) في (س) و(ط): «الانتفاعَ به في الآخرة وسلوك».

وطلبَ[١] مرضاتَه: أنَّ العِلمَ يدلُّ على اللهِ من أقرب الطُّرق إليه[٢]، فمَن سلَكَ طريقَه ولم يُعَرِّج عنه وصَلَ إلى اللهِ وإلى الجنّةِ من أقرَبِ الطُّرُقِ وأسهلها، فسهلت عليهم[٣] الطُّرُقُ الموصِلةُ إلى الجنّةِ[٤] كلُّها، في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٥]، ومَن سلَكَ طريقًا يظنُّه طريقَ الجنّةِ بغيرِ علمٍ فقد سلَكَ أعسَرَ الطُّرُقِ وأشقَّها، ولا يُوصِلُ إلى المقصودِ معَ عُسرِه وشدّتِه، فلا طريقَ إلى معرفةِ اللهِ وإلى الوصولِ إلى رِضوانِه والفوزِ بقُربِه ومجاورتِه في الآخرةِ إلّا بالعِلمِ النّافعِ، الذي بعَثَ اللهُ به رُسُلَه وأنزلَ به كُتُبَه، فهو الدَّليلُ عليه، وبه يُهتدَى في ظلماتِ الجهلِ والشُّبَهِ[٦] والشُّكوكِ، وقد سمّى اللهُ كتابَه نورًا يُهتدَى به في الظُّلماتِ، كما قالَ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقد ضرَبَ النَّبيُّ ﷺ مثلَ مَن حملَ العِلمَ الذي جاءَ به بالنُّجومِ التي يُهتدَى بها في الظُّلماتِ، كما في «المسندِ»، عن أنسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ[٧] مثَلَ العلماءِ

---

(١) في (هـ) و(ج): «من طلب».

(٢) سبق نظر ناسخ (س) و(ط)، فزاد: «وأسهلها» من السطر الذي يليه.

(٣) في (س) و(ط): «عليه».

(٤) في (م): «الموصلة الجنةَ».

(٥) في (هـ) و(ج): «والآخرة».

(٦) في (هـ): «والشبهة»، وفي (ج): «والشبهات» ورسمها في (م) محتمل.

(٧) في (ج): «قال إنما».

في الأرضِ كمَثلِ النُّجومِ في السَّماءِ، يُهتدَى بها في ظُلماتِ البرِّ والبحرِ، فإذا انطمست[١] النُّجومُ أوشَكَ أن يَضِلَّ[٢] الهُداةُ»[٣].

وهذا مثَلٌ[٤] في غايةِ المطابقةِ؛ لأنَّ طريقَ التَّوحيدِ والعِلمِ باللهِ تعالى وأحكامِه وثوابِه وعقابِه لا يُدرَكُ بالحِسِّ، إنَّما يُعرَفُ بالدَّليلِ، وقد بيَّنَ ذلك كلَّه في كتابِه وعلى لسانِ رسولِه ﷺ، فالعلماءُ بما أنزلَ اللهُ على رسولِه ﷺ همُ الأدِلّاءُ الذينَ يُهتدَى بهم في ظُلماتِ الجهلِ والشُّبهِ والضَّلالِ، فإذا فُقِدوا ضلَّ السّالكُ.

وقد شبَّه العلماءَ بالنُّجومِ، والنُّجومُ في السَّماءِ فيها ثلاثُ فوائدَ: يُهتدَى بها في الظُّلماتِ، وهي زينةٌ للسَّماءِ، ورُجومٌ للشَّياطِينِ الذينَ يسترِقونَ السَّمعَ منها.

والعلماءُ في الأرضِ تجتمِعُ فيهم هذه الأوصافُ الثّلاثةُ، بهم يُهتدَى في الظُّلماتِ، وهم زِينةُ الأرض[٥]، ورجومٌ[٦] للشَّياطِينِ الذينَ يخلِطونَ الحقَّ بالباطلِ ويُدخِلونَ في الدِّينِ ما ليسَ منه من أهلِ الأهواءِ، وما دامَ العِلمُ باقيًا في الأرضِ فالنّاسُ في هدًى، وبقاءُ العِلمِ بقاءُ حملَتِه[٧]، فإذا ذهبَ حملتُه ومَن يقومُ به وقعَ النّاسُ في الضَّلالِ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعًا يَنتزِعُه من صُدورِ الرِّجالِ، ولكن يذهَبُ العِلمُ

---

(١) في (س) و(ط): «طمست».

(٢) في (ض) و(س) و(ط): «تضل».

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٦٠٠).

(٤) «مثل» من (س) و(ط)، ولا توجد في سائر النسخ.

(٥) في (س) و(ط): «للأرض».

(٦) في (س) و(ط): «وهم رجوم».

(٧) في (ج): «ببقاء».

بذهابِ العلماءِ، فإذا لم يبقَ عالمٌ اتَّخذَ النّاسُ رؤوساً جُهّالًا، فسُئِلوا، فأفتَوا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا»[1].

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ جُبيرِ بنِ نُفَيرٍ، عن أبي الدَّرداءِ قالَ: كنّا معَ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: «هذا أوانُ يُختَلَسُ[2] العِلمُ منَ النّاسِ حتّى لا يقدروا منه على شيءٍ»، فقالَ زيادُ بنُ لَبيدٍ: كيفَ يُختَلَسُ منّا العِلمُ وقد قرأْنا القرآنَ؟ فوَاللهِ لَنقرأَنَّه ولَنُقرِئَنَّه نساءَنا وأبناءَنا، فقال: «ثكِلَتكَ أمُّكَ يا زيادُ، إن كُنتُ لَأعُدُّكَ[3] من فُقهاءِ المدينةِ، هذه التَّوراةُ والإنجيلُ عندَ اليهودِ والنَّصارَى، فماذا تُغني عنهم؟». قالَ جُبَيرُ بنُ نُفَيرٍ: فلَقيتُ عُبادةَ بنَ الصّامِتِ فقلتُ: ألا تسمَعُ ما يقولُ أبو الدَّرداءِ؟ فأخبرتُه بالذي قالَ، فقال: صدَقَ أبو الدَّرداءِ، لو شِئتُ لَأخبرتُكَ بأوَّلِ عِلمٍ يُرفَعُ[4] منَ النّاسِ: الخُشوعُ، يوشِكُ أن تدخُلَ مسجدَ[5] الجامِعِ فلا ترى فيه خاشِعًا[6].

وخرَّجه النَّسائيُّ من حديثِ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ، عن عَوفِ بنِ مالكٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ بنحوِه، وفي حديثِه: فذكَرَ ﷺ ضَلالةَ اليهودِ والنَّصارى على ما في أيديهم من

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. واللفظ الذي ذكره المصنف أدرج فيه من غير الصحيحين: «ينتزعه من صدور الرجال»، وهي في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٥٤)، وفيهما: «من العباد».

(٢) في (م): «به يختلس»، وفي (س) و(ط): «يختلس به»، والمثبت من سائر النسخ وهو الموافق للمصادر.

(٣) في (ج): «لأعدنك».

(٤) في (هـ) و(ج): «ينتزع».

(٥) في (هـ) و(س) و(ج): «المسجد»، وفي الترمذي: «مسجد جماعة».

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٥٣)، قال: حسن غريب. وأشار إلى أنه روي من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك، وسيذكره بعده من رواية النسائي.

كتابِ اللهِ، قالَ جُبَيرٌ: فلَقيتُ شدّادَ بنَ أوسٍ فحدَّثْتُه بحديثِ عَوفٍ، فقالَ: صَدَقَ، ألا أُخبِرُكَ بأوَّلِ ذلكَ يُرفَعُ؟ الخُشوعُ حتّى لا ترى خاشِعًا[١].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ نحوَه من حديثِ زِيادِ بنِ لَبيدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه ذكَرَ شيئًا فقالَ: «ذاكَ عندَ أوانِ ذَهابِ العِلمِ»، فذَكرَ الحديثَ، وفيه قالَ: «أوَ ليسَ اليهودُ والنَّصارى يقرؤون التَّوراةَ والإنجيلَ، لا يعملونَ بشيءٍ ممّا فيهما[٢]؟»، ولم يذكُرْ ما بعدَ هذا.

ففي هذهِ الأحاديثِ أنَّ ذهابَ العِلمِ بذهابِ العَمَلِ به[٣]، وأنَّ الصَّحابةَ رضيَ اللهُ عنهم فسَّروا ذلكَ بذهابِ العِلمِ الباطِنِ منَ القلوبِ، وأوَّلُه الخُشوعُ.

وكذا رُوِيَ عن حُذيفةَ: إنَّ أوَّلَ ما يُرفَعُ منَ العِلمِ الخُشوعُ[٤].

فإنَّ العِلمَ عِلمانِ كما قالَ الحسنُ: العِلمُ عِلمانِ: عِلمٌ على اللِّسانِ، فذاكَ حُجّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ، وعِلمٌ في القلبِ، فذاكَ العِلمُ النّافعُ[٥].

ورُوِيَ عنِ الحسنِ مرسَلًا، عنِ النَّبيِّ ﷺ[٦].

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: إنَّ أقوامًا يقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهم، ولكن إذا وَقَعَ في القَلبِ فرَسَخَ فيه نفَعَ[٧].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٨٧٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧٩١٩، ١٧٩٢٠، ١٧٤٧٣) واللفظ لآخر موضع.

(٣) في (هـ) و(ج): «العلماء به»

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٩٥٤)، والإمام أحمد في «الزهد» (١٠٠٣) بنحوه.

(٥) أخرجه الدارمي (٣٧٦).

(٦) اخرجه المروزي في زوائده على «الزهد لابن المبارك» (١١٦١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٥٠٢)، والدارمي (٣٧٧).

(٧) أخرجه مسلم (٨٢٢).

فالعِلمُ النّافعُ هو ما باشرَ القلبَ فأوقرَ[١] فيه معرفةَ الله تعالى، وعظَمتَه، وخشيتَه وإجلالَه، وتعظيمَه، ومحبَّتَه، ومتى سكنَت هذه الأشياءُ في القلبِ خشَعَ، فخَشَعت الجوارحُ كلُّها تَبَعًا لخُشوعِه.

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه كانَ يقولُ: «أعوذُ باللهِ من عِلمٍ لا ينفَعُ، ومن قَلبٍ لا يخشَعُ»[٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ العِلمَ الذي لا يُوجِبُ الخُشوعَ للقلبِ فهو عِلمٌ غيرُ نافعٍ.

ورُوِيَ عنه ﷺ: «أنَّه كانَ يسألُ اللهَ عِلمًا نافعًا»[٣].

وفي حديثٍ آخرَ قالَ: «سَلوا اللهَ عِلمًا نافعًا، وتعوَّذوا باللهِ من عِلمٍ لا ينفعُ»[٤].

وأمّا العِلمُ الذي على اللِّسانِ: فهو حُجّةُ اللهِ على ابنِ آدمَ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «و[٥] القرآنُ حُجّةٌ لكَ أو عليكَ»[٦]، فإذا ذهبَ منَ النّاسِ العِلمُ الباطِنُ بقيَ العِلمُ الظّاهرُ على الألسنةِ حُجّةً، ثمَّ يذهبُ هذا العِلمُ الذي هو حُجّةٌ بذهابِ حمَلَتِه، ولا يبقى منَ الدِّينِ إلّا رسمُه[٧]، فيبقى القرآنُ في المصاحِفِ، ثمَّ يُسرى به في آخرِ الزَّمانِ، فلا يبقى منه في المصاحِفِ ولا في القُلوبِ شيءٌ[٨].

---

(١) في (هـ) و(ج): «فأوقد»!. وفي (ض): «فأقر».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، من حديثٍ أطول من هذا لزيد بن أرقم رضي الله عنه. وفي (س): «إني أعوذ»، وهو في مسلم «اللهم إني أعوذ...».

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة من «السنن الكبرى» (٨٠١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) من (س) و(ط) وسقط من سائر النسخ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٧) المثبت من (م) وتصحف في سائر النسخ إلى: «اسمه».

(٨) انظر الأحاديث والآثار في ذلك في الجزء الذي صنفه الحافظ ضياء الدين المقدسي رحمه الله تعالى: «اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن»، وهو مطبوع.

ومن هنا قسَمَ مَن قسَمَ منَ العلماءِ العِلمَ إلى: باطنٍ وظاهرٍ.

فالباطنُ: ما باشرَ القلوبَ فأثمرَ لها الخشيةَ، والخشوعَ، والتَّعظيمَ، والإجلالَ، والمحبّةَ، والشَّوقَ، والأُنس.

والظّاهرُ: ما كانَ على اللِّسانِ، فبه تقومُ حُجّةُ اللهِ على عبادِه.

وكتبَ وَهْبُ بنُ منبِّهٍ إلى مكحولٍ: إنَّكَ امرؤٌ قد أَصبْتَ بما ظَهرَ من عِلمِ الإسلامِ شَرفًا، فاطلُبْ بما بطَنَ من عِلمِ الإسلامِ محبّةً وزُلفَى[1].

وفي رِوايةٍ أُخرَى أنَّه كتبَ إليه: إنّكَ قد بلغتَ بظاهِرِ عِلمِكِ عندَ النّاسِ منزلةً وشَرفًا، فاطلبْ بباطنِ عِلمِكَ عندَ اللهِ منزلةً وزُلفَى، واعلَمْ أنَّ إحدى المنزلتَينِ تمنعُ الأُخرَى[2].

فأشارَ وَهْبٌ بعِلمِ الظّاهرِ إلى عِلمِ الفتاوى والأحكامِ، والحلالِ والحرامِ، والقَصصِ والوَعظِ، وهو ما يظهرُ على اللِّسانِ، وهذا العِلم يوجِبُ لصاحبِه محبّةَ النّاسِ له وتقدُّمَه عندَهم، فحذَّرَه منَ الوقوفِ عندَ ذلكَ والرُّكونِ إليه، والالتفاتِ إلى تعظيمِ النّاسِ ومحبّتِهم؛ فإنَّ مَن وقفَ معَ ذلكَ فقد انقطَعَ عنِ اللهِ وانحجَبَ بنظرِه إلى الخَلقِ عنِ الحقِّ. وأشارَ بعِلمِ الباطنِ إلى العِلمِ الذي يُباشِرُ القلوبَ فيُحدِثُ لها الخشيةَ والإجلالَ والتَّعظيمَ، وأمرَه أن يطلُبَ بهذا المحبّةَ منَ اللهِ والقُربَ منه والزُّلفَى لدَيه.

وكانَ كثيرٌ منَ السَّلفِ ـ كسفيانَ الثَّوريِّ وغيرِه ـ يقسِمونَ العلماءَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ١٧٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٥٩). وانظر نحوه فيها: (٤/ ٥٤). وزاد ناسخ (س) و(ط) آخره: «من الأخرى».

(٣) كلام سفيان الثوري عند الدارمي (٣٧٥)، وابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة» (١/ ٩١). =

يقولونَ: عالمٌ باللهِ، عالمٌ بأمرِ اللهِ: ويُشيرونَ بذلكَ إلى مَن جمعَ بينَ هذَينِ العِلمَينِ المشارِ إليهما الظّاهرِ والباطنِ، وهؤلاءِ أشرفُ العلماءِ، وهم الممدوحونَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩].

وقالَ كثيرٌ منَ السَّلفِ: ليسَ العِلمُ كثرةَ الرِّوايةِ، ولكنَّ العِلمَ الخَشيةُ[١].

وقالَ بعضُهم: كفى بخشيةِ اللهِ عِلمًا، وكفى بالاغترارِ باللهِ جَهلًا[٢].

ويقولون أيضًا: عالمٌ باللهِ ليسَ بعالمٍ بأمرِ اللهِ: وهم أصحابُ العِلمِ الباطنِ الذينَ يخشونَ اللهَ، وليسَ لهم اتِّساعٌ في العِلمِ الظّاهرِ.

ويقولونَ: عالِمٌ بأمرِ اللهِ ليسَ بعالِمٍ باللهِ[٣]: وهم أصحابُ العِلمِ الظّاهرِ، الذينَ لا نفاذَ لهم في العِلمِ الباطِنِ، وليسَ لهم خشيةٌ ولا خشوعٌ، وهؤلاءِ مذمومونَ عندَ السَّلفِ. وكانَ بعضُهم يقولُ: هذا هو العالِمُ الفاجرُ[٤].

= ويذكر أيضاً عن أبي حيَّان التيمي، أخرجه يحيى بن معين (تاريخ الدوري عنه ـ ٢٦٢٤)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٦٣٦).

ويروى عن سفيان بن عيينة من قول بعض الفقهاء، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٧٩).

ويذكر عن غيرهم رحمهم الله.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨٦٧) من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. ويذكر عن غيره.

(٢) هو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٦٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٢)، وغيرهما.

(٣) من قوله: «العلم الباطن.. إلى قوله بعالم بالله» سقط من (م) و(ض) و(هـ) و(ج) وهو سقط خطير يختل به المعنى اختلالاً شديداً، والمثبت من (س) و(ط).

(٤) كما قال الثوري رحمه الله، وهو في «الدارمي» (٣٧٥).

وهؤلاءِ الذينَ وَقفوا معَ ظاهرِ العِلمِ، ولم يصلِ العِلمُ النّافعُ إلى قلوبِهم، ولا شمّوا له رائحةً، غلبَت عليهم الغفلةُ والقَسوةُ، والإعراضُ عن الآخرةِ، والتّنافسُ في الدُّنيا، ومحبّةُ العُلوِّ فيها والتّقدُّمِ بينَ أهلها، وقد مُنِعوا إحسانَ الظَّنِّ بمن وصلَ العِلمُ النّافعُ إلى قلبِه، فلا يحبُّونَهم ولا يُجالِسونَهم، وربَّما ذمُّوهم وقالوا: ليسوا بعلماءَ، وهذا من خِداعِ الشَّيطانِ وغُرورِه؛ لِيحرِمَهم الوصولَ إلى العِلمِ النّافعِ الذي مدحَه اللهُ ورسولُه وسلفُ الأمّةِ وأئمّتُها، ولهذا المعنى: كانَ علماءُ الدُّنيا يُبغِضُون علماءَ الآخرةِ، ويَسْعَونَ في أذاهم جُهدَهم، كما سَعَوا في أذى سعيدِ بنِ المسيّبِ، والحسنِ، وسُفيانَ[1]، ومالكٍ، وأحمدَ وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، وذلكَ لأنَّ علماءَ الآخرةِ خلفاءُ الرُّسلِ، وعلماءَ السُّوءِ فيهم شَبَهٌ منَ اليهودِ وهم أعداءُ الرُّسلِ وقَتلةُ الأنبياءِ ومَن يأمرُ بالقِسطِ منَ النّاسِ، وأشدُّ النّاسِ عداوةً وحسَدًا[2] للمؤمنينَ، ولشِدّةِ محبّتِهم للدُّنيا لا يعظِّمونَ عِلمًا ولا دِينًا، وإنَّما يعظِّمونَ المالَ والجاهَ والتَّقدُّمَ عندَ الملوكِ، كما قالَ بعضُ الوزراءِ للحجّاجِ بنِ أَرْطاةَ: إنَّ لكَ دِينًا وإنَّ لكَ عِلمًا وفِقهًا، فقالَ الحجّاجُ: أفلا تقولُ إنَّ لكَ شَرفًا وإنَّ لكَ قَدْرًا؟ فقالَ الوزيرُ: واللهِ إنَّكَ لتُصَغِّرُ ما عظَّمَ اللهُ وتُعظِّمُ ما صغَّرَ اللهُ[3].

وكثيرٌ ممَّن يدَّعي عِلمَ الباطنِ ويتكلَّمُ فيه ويقتَصِرُ عليه يذمُّ العِلمَ الظّاهرَ، الذي هو الشَّرائعُ والأحكامُ، والحلالُ والحرامُ، ويطعنُ في أهلِه. ويقولون: هم محجوبونَ! أصحابُ قُشورٍ!، وهذا يُوجِبُ القدحَ في الشَّريعةِ والأعمالِ الصّالحةِ،

---

(١) «وسفيان»: المثبت من (س) و(ط) وسقط من سائر النسخ.

(٢) المثبت من (س) و(ط)، وفي سائر النسخ: «حسداً وعداوة»، وسقطت: «وأشد الناس».

(٣) أخرجه وكيع في «أخبار القضاة» (٢/ ٥٢).

التي جاءَتِ الرُّسُلُ بالحثِّ عليها[١] والاعتناءِ بها، وربَّما انحلَّ بعضُهم عنِ التَّكاليفِ وادَّعى أنَّها للعامّةِ، وأمّا مَن وصلَ فلا حاجةَ له إليها وأنَّها حِجابٌ له، وهؤلاءِ كما قالَ الجُنيدُ وغيرُه منَ العارفِينَ: وصلوا ولكن إلى سَقَرَ[٢]! وهذا من أعظمِ خِداعِ الشَّيطانِ وغُرورِه لهؤلاءِ لم يزلْ يتلاعبُ بهم حتّى أخرجَهم عنِ الإسلامِ.

ومنهم مَن يظُنُّ أنَّ هذا العِلمَ الباطِنَ لا يُتلقّى من مشكاةِ النُّبوّةِ ولا منَ الكتابِ والسُّنّةِ، وإنَّما يُتلقَّى منَ الخواطرِ والإلهاماتِ والكُشوفاتِ، فأساؤوا الظَّنَّ بالشَّريعةِ الكاملةِ، حيثُ ظنُّوا أنَّها لم تأتِ بهذا العِلمِ النّافعِ الذي يُوجِبُ صلاحَ القلوبِ وقُربَها من علّامِ الغُيوبِ، وأوجبَ لهم ذلكَ الإعراضَ عمّا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ في هذا البابِ بالكلِّيّةِ، والتَّكلُّمَ فيه بمجرَّدِ الآراءِ والخواطرِ فضلُّوا وأضلُّوا.

فظهرَ بهذا: أنَّ أكملَ العلماءِ وأفضلَهم: العلماءُ باللهِ العلماء بأمر الله، الذينَ جمعوا بينَ العِلمَينِ، وتلقَّوهما معًا منَ الوَحيَينِ، أعني: الكتابَ والسُّنّةَ، وعرَضوا كلامَ النّاسِ في العِلمَينِ معًا على ما جاءَ في الكتابِ والسُّنّةِ، فما وافقَ قَبِلوه وما خالَفَ ردُّوه، وهؤلاءِ خُلاصةُ الخَلقِ، وهم أفضلُ النّاسِ بعدَ الرُّسُلِ، وهم خلفاءُ الرُّسلِ حقًّا، وهؤلاءِ كثيرٌ في الصَّحابةِ: كالخلفاءِ الأربعةِ، ومعاذٍ، وأبي الدَّرداءِ، وسلمانَ، وابنِ مسعودٍ، وابنِ عمرَ، وابنِ عبّاسٍ، وغيرِهم.

---

(١) في (ض) و(هـ) و(ج): «بالبحث عنها».

(٢) نقل هذا أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٧١) لكن عن أبي علي الروذباري وهو من أصحاب الجنيد، فيمن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال، لأني قد وصلت إلى درجة لا يؤثر في اختلاف الأحوال.

وعن السلمي أخرجه القشيري في «الرسالة» (١/ ١١٩).

وكذلكَ فيمَن بعدَهم: كالحسنِ، وسعيدِ بنِ المسيِّب، وعطاءٍ، وطاوسٍ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والنَّخَعيِّ، ويحيى بنِ أبي كثيرٍ.

وفيمَن بعدَهم: كالثَّوريِّ، والأَوزاعيِّ، وأحمدَ، وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ.

وقد سمّاهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه العلماءَ الرَّبّانيِّينَ، يُشيرُ إلى أنَّهم الرَّبّانيُّونَ الممدوحونَ في غيرِ موضعٍ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقالَ: النّاسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربّانيٌّ، ومتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ، وهمَجٌ رَعاعٌ[1]. ثمَّ ذكرَ كلامًا طويلًا وصفَ به علماءَ السُّوءِ والعلماءَ الرَّبانيِّينَ، وقد شَرحْناه في غيرِ هذا الموضِعِ[2].

والمقصودُ هاهنا: أنَّ التماسَ العلمِ سببٌ موصِلٌ إلى الجنّةِ.

وفي الحديثِ المعروفِ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا مرَرْتُم برياضِ الجنّةِ فارتَعوا»، قالوا: وما رياضُ الجنّةِ؟ قال: «حِلَقُ الذِّكرِ».

وكانَ ابنُ مسعودٍ إذا ذكرَ هذا الكلامَ يقولُ: أما إنِّي لا أعني القُصّاصَ[3]، ولكن حِلَقَ الفقهِ[4].

ورُوِيَ عن أنسٍ معناه أيضًا[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٧٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٧٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ٤٠٨).

(٢) في كتاب «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة».

(٣) في (هـ) و(ج): «القصص».

(٤) أخرجه القاضي أبو يوسف في «الآثار» (٩٥٩)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٥ ـ ٩٦) عن ابن مسعود، وقبله الحديث السابق. وأخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٤) من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وقبله الحديث المرفوع السابق.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١٢٥٢٣)، والترمذي (٣٥١٠) وقال: حسن غريب من هذا الوجه، من حديث =

وقالَ عطاءٌ الخُراسانيُّ: مجالِسُ الذِّكرِ مجالِسُ الحلالِ والحرامِ، كيفَ تشتري وتبيعُ، وتصلِّي وتصومُ، وتنكِحُ وتُطلِّقُ وتحجُّ، وأشباه هذا[١].

وقالَ يحيى بنُ أبي كَثيرٍ: دَرسُ الفِقهِ صلاةٌ[٢].

وكانَ أبو السَّوّارِ العَدويُّ في حَلْقةٍ يتذاكرونَ العِلمَ ومعَهم فتًى شابٌّ فقالَ لهم: قولوا: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ، فغَضِبَ أبو السَّوّارِ وقالَ: ويحكَ في أيِّ شيءٍ كنّا إذًا[٣].

والمرادُ من هذا أنَّ مجالِسَ الذِّكرِ لا تختَصُّ بالمجالِسِ التي يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ ونحوِه، بل يَشملُ ما فيه[٤] أمرُ اللهِ ونهيُه، وحلالُه وحرامُه، وما يُحبُّه ويرضاه، فإنَّه ربَّما كانَ هذا الذِّكرُ أنفعَ من ذلكَ؛ لأنَّ معرفةَ الحلالِ والحرامِ واجبةٌ في الجملةِ على كلِّ مسلمٍ بحسَبِ ما يتعلَّقُ به من ذلك.

وأمّا ذكرُ اللهِ باللِّسانِ: فإنَّ أكثرَه يكونُ تطوُّعًا، وقد يكونُ واجبًا كالذِّكرِ في الصَّلواتِ المكتوبةِ.

وأمّا معرفةُ ما أمرَ اللهُ به وما نهى عنه، وما يُحبُّه ويرضاهُ وما يكرَهُه وينهى عنه:

= ثابت عن أنس رضي الله عنه بأصل الحديث، وأخرجه عن أنس بمعنى كلام ابن مسعود: أبو يعلى (٤٠٨٧ ـ ٤٠٨٨)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩١) من حديث يزيد الرقاشي، عن أنس رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» (ص: ٣٥٩)، ومن طريقه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٤).

(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٦٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٥).

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام الأحمد في زياداته على «الزهد» (١٨٤٤).

(٤) في (س) و(ط): «تشمل ما ذكر فيه».

فيجِبُ على كلِّ مَن احتاجَ إلى شيءٍ من ذلكَ أن يتعلَّمَه؛ ولهذا رُوِيَ: «طَلَبُ العِلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ»[1]، فإنَّه يجبُ على كلِّ مسلمٍ معرفةُ ما يحتاجُ إليه في دِينِه كالطَّهارةِ والصَّلاةِ والصِّيامِ، ويجبُ على مَن له مالٌ معرفةُ ما يجِبُ عليه في مالِه من زكاةٍ ونَفقةٍ وحجٍّ وجِهادٍ، وكذلكَ يجبُ على مَن يبيعُ ويشتري أن يتعلَّمَ ما يحلُّ ويحرُمُ منَ البيوعِ، كما قالَ عمرُ رضي الله عنه: لا يبيعُ في سُوقِنا إلّا مَن قد فَقِه في الدِّينِ. خرَّجه التِّرمذيُّ[2].

ويُروَى بإسنادٍ فيه ضَعفٌ، عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: الفقهُ قبلَ التِّجارةِ، إنَّه مَن اتَّجرَ قبلَ أن يتفقه فقد[3] ارتَطمَ في الرِّبا ثمَّ ارتَطمَ[4].

وسُئِلَ ابنُ المباركِ: ما الذي يجبُ على النّاسِ من تعلُّمِ العِلمِ؟ قالَ: ألّا يُقدِمَ

---

(١) أخرجه البزار (٦٧٤٦)، وابن ماجه (٢٢٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

قال البزار: «وكل ما يروى عن أنس في طلب العلم فأسانيدها لينة كلها».

وقال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (ص: ١٥) ط الرسالة: «هذا حديث يروى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها معلولة، لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد».

وقال البيهقي في «المدخل» (١٤٤٢): «هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لا أعرف له إسناداً يثبت بمثله الحديث». وقد حسنه بعد ذلك المزي، وصححه السيوطي!

ومعنى الحديث: فريضةُ طلب علمِ ما تصح به إقامة الفرائض واجتناب المحرمات.

(٢) أخرجه الترمذي (٤٨٧) وقال: حسن غريب.

وقد وقع في حاشية (س) إشارة إلى نسخة: «لا يبيع في سوقنا من قلَّ فقهه في الدين». وهو تصحيف فلا يغتر به.

(٣) في (ص) و(ط): «قبل التفقه».

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧٢).

الرَّجلُ على شيءٍ إلّا بعلمٍ يسألُ ويتعلَّمُ، فهذا الذي يجبُ على النّاسِ مِن تعلُّمِ العلمِ. ثمَّ فسَّرَه فقالَ: لو أنَّ رجلًا لم يكنْ له مالٌ لم يكنْ عليه واجبٌ[1] أن يتعلَّمَ الزَّكاةَ، فإذا كانَ له مئتا درهمٍ وجبَ عليه أن يتعلَّمَ كم يُخرِجُ ومتى يُخرِجُ وأين يضَعُ، وسائرُ الأشياءِ على هذا[2].

وسُئِلَ الإمامُ أحمدُ رحمَه اللهُ عنِ الرَّجلِ ما يجبُ عليه من طلبِ العلمِ، فقالَ: ما يُقيمُ به الصلاة، وأمرَ دِينِه منَ الصَّومِ والزَّكاةِ، وذَكرَ شرائعَ الإسلامِ، وقالَ: ينبغي له أن يتعلَّمَ ذلكَ[3].

وقالَ أيضًا: الذي يجبُ على الإنسانِ منَ العِلمِ: ما لا بدَّ له منه في صلاتِه وإقامةِ دِينِه[4].

واعلَمْ أنَّ عِلمَ الحلالِ والحرامِ عِلمٌ شريفٌ، ومنه ما تعلُّمُه فرضُ عينٍ، ومنه ما هو فرضُ كِفايةٍ.

وقد نصَّ العلماءُ أنَّ تعلُّمَه أفضلُ من نوافلِ العباداتِ، منهم أحمدُ وإسحاقُ[5]، وكانَ أئمّةُ السَّلفِ يتوقَّونَ الكلامَ فيه تورُّعًا؛ لأنَّ المتكلِّمَ فيه مخبرٌ عنِ اللهِ بأمرِه ونهيِه، مبلِّغٌ عنه شرعَه ودِينَه.

---

(١) هكذا رسمت في جميع النسخ: «واجب» فحافظنا على الرسم، ووضعنا التنوين بالنصب ليوافق صواب الإعراب.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٧١).

(٣) «مسائل الإمام أحمد» رواية ابنه عبد الله (١٥٨٩).

(٤) نقله ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٧٥) من رواية إسماعيل الشالنجي عن الإمام أحمد رحمه الله.

(٥) انظر: «مسائل الإمام أحمد وإسحاق» للكوسج (٣٣٠٩ ـ ٣٣١١).

كانَ ابنُ سيرينَ إذا سُئلَ عن شيءٍ منَ الحلالِ والحرامِ تغيَّرَ لونُه وتبدَّلَ، حتَّى كأنَّه ليسَ بالذي كانَ[١].

وقالَ عطاءُ بنُ السّائبِ: أدركتُ أقوامًا إن كانَ أحدُهم لَيُسألُ عنِ الشيءِ[٢]، فيتكلَّمُ وإنَّه لَيُرعَدُ[٣].

ورُوِيَ عن مالكٍ أنَّه كانَ إذا سُئِلَ عن مسألةٍ كأنَّه بينَ الجنّةِ والنّارِ[٤].

وكانَ أحمدُ شديدَ التَّورُّعِ في إطلاقِ لفظِ الحلال والحرام، أو دعوى النَّسخِ، ونحوِ ذلكَ، مما يجسُرُ عليه غيرُه كثيرًا، وأكثرُ أجوبتِه: أرجو، أو: أخشى، أو: أحَبُّ إليَّ، ونحوُ ذلكَ، وكانَ هو ومالكٌ وغيرُهما يقولونَ كثيرًا: لا ندري[٥]، وكان أحمدُ يقولُ ذلكَ في مسألةٍ يَذكُرُ فيها السَّلفُ[٦] أقوالًا عديدةً، ويُريدُ بقولِه: لا أدري: أي الرّاجحَ المفتَى به من ذلكَ.

ومن مجالِسِ الذِّكرِ أيضًا: مجالِسُ العِلمِ، التي يُذكرُ فيها تفسيرُ كتابِ اللهِ، أو

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٩٤ ط الخانجي)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٠ ط العراق)، ومن طريقه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٣).

(٢) المثبت من (س) و(ط) موافقاً للمصادر، وفي سائر النسخ: «عن شيء».

(٣) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٨١٧)، ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٥٤).

(٥) قال أبو داود في «مسائله للإمام أحمد» (١٧٨٢): «وما أحصي ما سمعت أحمد يُسأل عن كثير مما فيه اختلاف من العلم، فيقول: لا أدري». وذلك في مسائل الفقه، وفي معرفة الرجال أيضاً.
وأخرج أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٢٣) عن ابن وهب قال: لو شئت أن أملأ ألواحي من نوادر مالك بن أنس: لا أدري؛ فعلت.

(٦) في (م): «يذكر فيها للسلف» وفي (س) و(ط): «يذكر للسلف فيها».

يُروَى فيها سنّةُ رسولِ اللهِ ﷺ، فإن كانَت روايةُ الحديثِ معَ تفسيرِ معانيه فذلكَ أكملُ وأفضلُ من مجرَّدِ روايةِ ألفاظِه، ويدخُلُ في الفقهِ في الدِّينِ: كلُّ عِلمٍ مستنبَطٍ من كتابِ اللهِ، أو سنّةِ رسولِه ﷺ، سواءٌ كانَ من **علومِ الإسلامِ**، التي هي الأعمالُ الظّاهرةُ والأقوالُ، أو من **علومِ الإيمانِ** التي هي الاعتقاداتُ الباطنةُ، وأدلّةُ ذلكَ وبراهينُه المقرَّرةُ[1] في الكتابِ والسُّنّةِ، أو من **علومِ الإحسانِ** التي هي علومُ المراقبةِ والمشاهدةِ بالقلبِ، ويدخُلُ في ذلكَ: عِلمُ الخَشيةِ، والمحبّةِ، والرَّجاءِ، والإنابةِ، والصَّبرِ، والرِّضا، وغيرِ ذلكَ من المقاماتِ.

وكلُّ ذلكَ قد سمّاهُ النَّبيُّ ﷺ في حديثِ سؤالِ جَبرَئيلَ له: دِينًا لنا[2]، فالفقهُ فيه منَ الفقهِ في الدِّينِ، ومجالِسُه من أفضلِ مجالِسِ الذِّكرِ، التي هي من رياضِ الجنّةِ، وهي أفضلُ من مجالِسِ ذكرِ اسمِ اللهِ بالتَّسبيحِ والتَّكبيرِ والتَّحميدِ ؛ لأنَّها دائرةٌ بينَ فرضِ عينٍ أو فرضِ كفايةٍ، والذِّكرُ المجرَّدُ تطوُّعٌ محضٌ.

وقد دخلَ بعضُ السَّلفِ مسجدَ البَصرةِ، فرأى فيه حلَقتَينِ: في إحداهما قاصٌّ، وفي الأخرى فقيهٌ يعلِّمُ الفقهَ، فصلَّى ركعتَينِ، واستخارَ اللهَ في الجلوسِ إلى إحداهما، فنَعِسَ، فرأى في نومِه قائلًا يقولُ له: أَوَ قد سوَّيتَ بينَهما؟ إن شئتَ أريناكَ مَقعدَ جبريلَ عليه السَّلامُ من فلانٍ، يعني الفقيهَ الذي يعلِّمُ العِلمَ[3].

---

(١) هكذا في جميع النسخ: «المقررة»، ولعل الصواب: «مقررةٌ».

(٢) في (س): «له عنه ديناً لنا». والحديث هو أول حديث في «صحيح مسلم» من رواية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارمي (٣٥٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٤٨) عن ابن سيرين. والقاص هو الأسود بن سريع، والفقيه: حميد بن عبد الرحمن رحمهم الله.

وسنذكرُ فيما بعدُ النُّصوصَ الدّالةَ على فضلِ العِلمِ على أنواعِ العباداتِ، من الذِّكرِ وغيرِه إن شاءَ اللهُ تعالى.

وكانَ زيدُ بنُ أسلَمَ من جِلَّةِ علماءِ المدينةِ، وكانَ له مجلِسٌ في المسجدِ، يذكرُ فيه التَّفسيرَ والحديثَ والفقهَ وغيرَ ذلكَ، فجاءَ إليه رجلٌ فقالَ له: إنِّي رأيتُ بعضَ أهلِ السَّماءِ وهو يقولُ لأهلِ هذا المجلسِ: هؤلاءِ في روضاتِ الجنَّات[1] آمنونَ، ثمَّ أراه أَنزَلَ على أهلِ المجلسِ حوتًا طريًّا ووضعَه بينَ أيديهم[2].

وجاءَ إليه رجلٌ فقالَ له: إنِّي رأيتُ النَّبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعمرَ خرجوا من هذا البابِ[3]، والنَّبيُّ ﷺ يقولُ: انطلِقوا بنا إلى زيدِ بنِ أسلَمَ نجالسُه ونسمعُ من حديثِه، فجاءَ النَّبيُّ ﷺ حتّى جلسَ إلى جنبِكَ، وأخذَ بيدِكَ، فلم يبقَ زيدٌ بعدَ هذه الرُّؤيا إلّا قليلًا حتّى ماتَ رحمَه اللهُ تعالى[4].

ومعَ ما ذكرْنا من تفضيلِ العلمِ على القَصصِ؛ فالعالِمُ لا يستغني أحيانًا عن موعظةِ النّاسِ والقَصصِ عليهم، وإزالةِ قسوةِ قلوبِهم[5] بالتَّذكيرِ باللهِ وأيّامِه، فإنَّ القرآنَ يشتَمِلُ على ذلكَ كلِّه، والفقيهُ العالِمُ حقًّا هو مَن فَهِمَ كتابَ اللهِ، واتَّبعَ ما فيه، كما قالَ عليٌّ: الفقيهُ حقُّ الفقيهِ مَن لا يُقنِّطُ النّاسَ من رحمةِ اللهِ،

---

(١) في (م): «الجنة»، وفي (س) و(ط): «الجنان».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٣٢٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٧٣).

(٣) في (م) و(ض) و(هـ) و(ج): «من الباب».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٣٢٠)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/ ١١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٢٩٢). وفي (م) و(هـ) و(ج): «زيد» فحسب.

(٥) في (س) و(ط): «القسوة عن قلوبهم».

ولا يُرخِّصُ لهم في معاصي اللهِ، ولا يدَعُ القرآنَ رغبةً عنه إلى غيرِه[١].

وقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يتخوَّلُ أصحابَه بالموعِظةِ خشيةَ السَّآمةِ عليهم[٢].

* * *

قولُه ﷺ: «وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها لطالِبِ العِلمِ رضًى[٣]».

وخرَّجَ ابنُ ماجَه من حديثِ زِرِّ بنِ حُبَيشٍ، قالَ: أتيتُ صفوانَ بنَ عسّالٍ، فقالَ: ما جاءَ بكَ؟ فقلتُ أُنْبِطُ[٤] العِلمَ. قالَ: فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما مِن خارِجٍ يخرُجُ من بيتِه في طَلَبِ العِلمِ إلّا وضَعَت له الملائكةُ أجنحتَها رضًى بما يصنعُ»[٥].

وخرَّجَه التِّرمذيُّ وغيرُه موقوفًا على صَفوانَ[٦].

وقد اختلفَ النّاسُ في تأويلِ وضعِ الملائكةِ أجنحتَها:

فمنهم: مَن حملَه على ظاهرِه، وأنَّ المرادَ فَرْشُ الأجنحةِ وبسطُها لطلّابِ العِلمِ؛ لتحمِلَهم عليها إلى مقاصدِهم منَ الأرضِ التي يطلبونَ فيها العِلمَ، إعانةً لهم على الطَّلَبِ وتيسيرًا عليهم، وقد سَمِعَ هذا الحديثَ بعضُ الملحدِينَ، فقالَ لطلَبةِ

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٠٥ ـ ٣٠٦).

(٢) كما قال ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٦٨)، ومسلم (٢٨٢١).
«يتخول»: يتعهد أصحابه، ويراعي أوقاتهم.

(٣) زاد ناسخ (س) و(ط): «بما يطلب».

(٤) في (س) و(ط): «أطلب». وهو من تصرف النساخ. وأُنبط العلم: أستخرجه من العلماء.

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٢٦).

(٦) في (هـ) و(ج): «صفوان بن عسال»، وأخرجه الترمذي (٣٥٣٥) وقال: حسن صحيح.

العِلمِ: ارفعوا أرجلَكم عن أجنحةِ الملائكةِ. لا تكسروها!، يستهزئُ بذلك!، فما زالَ من موضعِه حتّى جفَّت رِجلاه وسقَطَ[١].

ورُوِيَ عن آخر أنه[٢] قالَ: لأكسِرَنَّ أجنحةَ الملائكةِ، فصنعَ له نَعلًا طَرقَها بمساميرَ كثيرةٍ، ثم مشى بها إلى مجلِسِ العِلمِ، فجفَّت رِجلاه، ووقعَت فيهما الأَكَلةُ[٣].

ومنهم: مَن فسَّرَ وَضْعَ الملائكةِ أجنحتَها: بالتَّواضُعِ منهم والخضوعِ لطلّابِ العِلمِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ للملائكةِ أجنحةً حقيقةً بخلافِ البَشرِ.

ومنهم: مَن فسَّرَ ذلكَ بأنَّ الملائكةَ تحفُّ بأجنحتِها مجالِسَ الذِّكرِ إلى السَّماءِ، كما جاءَ ذلكَ صريحًا في حديثِ أبي هريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ[٤].

ووردَ مثلُه في بعضِ ألفاظِ حديثِ صفوانَ بنِ عسّالٍ مرفوعًا: «إنَّ طالبَ العِلمِ لَتحفُّه الملائكةُ، وتُظِلُّه بأجنحتِها، ثمَّ يركبُ بعضُهم بعضًا حتى يبلُغوا إلى سماء الدُّنيا من حبِّهم لما يطلُبُ»[٥]، ولعلَّ هذا القولَ أشبهُ[٦]، واللهُ أعلمُ.

---

(١) سبق ذكره في حاشية سابقة، وقد نقله ابن القيم من رواية الطبراني عن الساجي. انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٣ ـ ط عطاءات العلم).

(٢) المثبت من (ض)، وفي (م) و(هـ) و(ج): «وروى آخر أنه»، وفي (س) و(ط): «وروي أن آخر».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢١٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٨) في حديثٍ لأبي هريرة رضي الله عنهم مرفوعاً: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...».

(٥) في سائر النسخ: «السماء الدنيا»، والمثبت من (م) وهو الموافق لما أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٣٩)، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧).

(٦) وفسره الإمام مالك أنها تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلًا من الأيدي. انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ١٧٣) واعتمده ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٣).

قولُه ﷺ: «وإنَّ العالِمَ لَيستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتّى الحيتانُ في الماءِ».

قد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه باستغفارِ ملائكةِ السَّماءِ للمؤمنينَ عمومًا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، فهذا للمؤمنينَ عمومًا، فأمّا العلماءُ: فيستغفِرُ لهم أهلُ الأرضِ حتّى حيتانُ البحرِ.

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السَّماواتِ وأهلَ الأرضِ حتّى النَّملةُ في جُحرِها وحتّى الحوتُ لَيُصلُّونَ[1] على معلِّمِ[2] النّاسِ الخَيرَ»، وصحَّحَه التِّرمذيُّ[3].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ من حديثِ جابرٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مُعلِّمُ[4] الخيرِ يستغفرُ له كلُّ شيءٍ حتّى الحيتانُ في البِحارِ»[5].

ويُروَى من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «العلماءُ وَرثةُ الأنبياءِ يُحبُّهم أهلُ السَّماءِ، وتستغفرُ لهم الحيتانُ في البحرِ إذا ماتوا إلى يومِ القيامةِ»[6].

---

(١) في (س) و(ط): «في البحر ليصلون».

(٢) في (س) و(ط): «معلمي».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حسن صحيح غريب.

(٤) في (س) و(ط): «معلم الناس».

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٢١٩).

(٦) أخرجه الواحدي في «الوسيط» (١/ ٤٦)، والديلمي «زهر الفردوس ـ ٢٠٥٤»، وأبو نعيم كما ذكر الحافظ ابن حجر في «زهر الفردوس» (٢٠٥٤).

وورد الاستغفارُ أيضًا لطالبِ العِلمِ:

ففي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عن قَبيصةَ بنِ المُخارِقِ قالَ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ فقالَ: «ما جاءَ بكَ؟» فقلتُ: كَبِرَت سنِّي، ورَقَّ عظمي، فأتيتُكَ لتُعلِّمَني ما ينفَعُني اللهُ به، قالَ: «يا قَبيصةُ، ما مررْتَ بحَجَرٍ ولا شَجَرٍ ولا مَدَرٍ إلّا استغفرَ لكَ»[1].

وقد دلَّ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٣] على أنَّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّونَ على أهلِ الذِّكرِ، والعِلمُ من أفضلِ أنواعِ الذِّكرِ كما سبقَ تقريرُه.

وخرَّجَ الحاكمُ من حديثِ سُليمِ بنِ عامرٍ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى أبي أُمامةَ فقالَ: يا أبا أُمامةَ، إنِّي رأيتُ في منامي كأنَّ الملائكةَ تصلِّي عليكَ، كلَّما دخلتَ، وكلَّما خرجتَ، وكلَّما قمتَ، وكلَّما جلستَ، فقال أبو أُمامةَ: اللَّهم غُفرًا دَعُونا عنكم، وأنتم لو شئتُم لصلَّت عليكم الملائكةُ، ثُم قرأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2].

وقد ذكرَ بعضُهم السِّرَّ في استغفارِ دوابِّ الأرضِ للعلماءِ، وهو أنَّ العلماءَ يأمرونَ النّاسَ بالإحسانِ إلى المخلوقاتِ كلِّها، وبإحسانِ قِتْلَة ما يجوزُ قتلُه أو ذَبحُه منَ الحيوان، فيتعدَّى نفعُهم إلى الحيواناتِ كلِّها، فلذلكَ يستغفِرونَ لهم.

ويظهرُ فيه معنًى آخرُ: وهو أنَّ سائرَ المخلوقاتِ مطيعةٌ للهِ، قانتةٌ له، مسبِّحةٌ له، غيرَ عُصاةِ الثَّقلَينِ الجنِّ والإنسِ، فكلُّ الخلقِ المطيعينَ للهِ يحبُّونَ أهلَ طاعتِه، فكيفَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٦٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

بمَن دعا الخلقَ إلى طاعةِ اللهِ وحضَّهم وعلَّمَهم؟ والعِلمُ هو نورُ اللهِ في الأرضِ، به يُعرَفُ اللهُ وتُعرَفُ حقوقُه وطاعتُه، فمَن كانَت هذه صِفتَه فإنَّ اللهَ يحبُّه ويزكّيه ويثني عليه، ويأمرُ عبادَه من أهلِ السَّماءِ والأرضِ وسائرَ خلقِه بمحبَّتِه والدُّعاءِ له، وذلكَ هو صلاتُهم عليه، ويجعلُ له المودّةَ في قلوبِ عبادِه المؤمنينَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

ولا تختصُّ محبّتُه بالحيواناتِ، بل تحبُّه الجماداتُ أيضًا، كما جاءَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]: أنَّ السَّماءَ والأرضَ تبكي على المؤمنِ إذا ماتَ أربعِينَ صباحًا[١].

وفي الحديثِ: إنَّ الأرضَ تقولُ للمؤمنِ إذا دُفِنَ: إنْ كنتَ لأَحبَّ مَن يمشي على ظَهري، فسترى إذ صرتَ إلى[٢] بطني صَنيعي بِكَ[٣].

وإنَّما يُبغضُ المؤمنَ والعالِمَ عُصاةُ الثَّقَلَينِ؛ لأنَّ معصيتَهم للهِ اقتضَت تقديمَ أهواءِ نفوسِهم على محبّةِ اللهِ وطاعتِه، فكرِهوا طاعةَ اللهِ وأهلَ طاعتِه.

ومَن أحبَّ اللهَ وأحبَّ طاعتَه أحبَّ أهلَ طاعتِه، وخصوصًا مَن دعا إلى طاعتِه وأمرَ النّاسَ بها وحثَّ عليها، وأيضًا فإنَّ العلمَ إذا ظهرَ في الأرضِ وعمِلَ به درَّتِ البركاتُ وزَكَت[٤] الأرزاقُ، فيعيشُ أهلُ الأرضِ كلُّهم حتّى النَّملةُ وغيرُها منَ الحيواناتِ ببركة ذلك، ويستبشرُ أهلُ السَّماءِ بما يرفع لأهلِ الأرضِ

---

(١) ذكر السيوطي في تفسير هذه الآية في «الدر المنثور» ذلك عن مجاهد، وعزاه إلى عبد بن حميد وأبي الشيخ في «العظمة».

(٢) في (هـ) و(ج): «في». وفي بعض النسخ: «إذا صرت» والصواب: «إذ».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٠) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) تصحفت في (س) إلى: «ونزلت».

مـنَ الطّاعـاتِ والأعمـالِ الصّالحـاتِ، فيسـتغفرونَ لمَـن كانَ السَّـببَ فـي ذلـك.

وعكـسُ هـذا: أنَّ مَن كتـمَ العِلمَ الذي أمـرَ اللهُ بإظهارِه لعنَـه اللهُ وملائكتُه وأهلُ السَّـماءِ والأرضِ، حيـثُ سـعى في إطفاءِ نـورِ اللهِ فـي الأرضِ، الذي بسـببِ إخفائِه تظهرُ المعاصـي والظُّلمُ والعـدوان[1] والبَغيُ، قالَ تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقـرة: ١٥٩]، وقـد قِيـلَ: إنَّهـا نزلَـت في أهلِ الكتـابِ الذيـنَ كتَموا[2] مـا عندَهم في كتبهـم من صفةِ النَّبـيِّ ﷺ[3].

وكانَ أبو هريرةَ يقولُ: لولا آيةٌ في كتابِ اللهِ ما حدَّثتُكم شيئًا[4] أبدًا، ويتلو هذهِ الآيةَ[5].

وفي «سننِ ابنِ ماجَه»، عن البَراءِ بنِ عازِبٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، قالَ: دوابُّ الأرضِ[6].

وقد رُوِيَ هذا موقوفًا على البَراءِ[7].

ورُوِيَ عن طائفةٍ منَ السَّلفِ، وقالوا: تلعنُهم دوابُّ الأرضِ، ويقولونَ: مُنِعْنا القطرَ بخطايا بني آدمَ[8].

---

(١) في (س) و(ط): «والعداوة».

(٢) في (ض) و(ج): «يكتمون».

(٣) كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه، أخرجه الطبري (٢/ ٧٣٠).

(٤) في (ض): «حديثاً».

(٥) أخرجه البخاري (١١٨) (٢٣٥٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢١).

(٧) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٤٤٤).

(٨) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٧٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٠٤٦) من كلام مجاهد رحمه الله.

فإنَّ كِتمانَ العِلمِ النّافعِ سببٌ لظُهورِ الجهلِ والمعاصي، وذلكَ يُوجِبُ قُحوطَ المطرِ ونزولَ البلاءِ، فيعمُّ دوابَّ الأرضِ، فتهلِكُ بخطايا بني آدمَ، فتَلعَنُ الدَّوابُّ مَن كانَ سَببًا في ذلك.

وقد ظهرَ بهذا: أنَّ محبّةَ العلماءِ منَ الدِّينِ، كما قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه لكُمَيلِ بنِ زِيادٍ: ومحبّةُ العالِمِ دِينٌ يُدانُ بها[١].

وفي الأثرِ المعروفِ: كنْ عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مستمِعًا، أو محبًّا، ولا تكنِ الخامسَ فتهلِكَ[٢].

قالَ بعضُ السَّلفِ عندَ هذا: سبحانَ اللهِ لقد جعَلَ اللهُ لهم مخرَجًا[٣]، يعني أنَّه لا يخرُجُ عن هذهِ الأربعةِ الممدوحةِ إلّا الخامسُ الهالِكُ، وهو مَن ليسَ بعالِمٍ ولا متعلِّمٍ ولا مستمِعٍ ولا محبٍّ لأهلِ العِلمِ وهو الهالِكُ، فإنَّ مَن أبغضَ أهلَ العِلمِ أحبَّ هلاكَهم، ومَن أحبَّ هلاكَهم فقد أحبَّ أن يُطفَأَ نورُ اللهِ مِن الأرضِ، وتظهَرَ فيها المعاصي والفسادُ، فيُخشَى ألّا يرتفع لهم[٤] معَ ذلكَ عملٌ، كما أنَّ مَن أحبَّ ظالمًا أو دعا له بالبقاءِ فقد أحبَّ أن يُعصى اللهُ، فيُخشَى ألّا يُرفَعَ لهم عملٌ معَ ذلكَ، كما قاله سفيانُ الثَّوريُّ وغيرُه منَ السَّلفِ[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩) في حديث طويل، سبق ذكر طرف آخر منه.

(٢) ورد مرفوعاً وموقوفاً على عدد من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وقول المصنف «وفي الأثر المعروف» إشارة إلى ترجيح كونه موقوفاً، والمرفوع أخرجه البزار (٣٦٢٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٦١١٦) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وفي (س) و(ط): «محبًا لهم».

(٣) أخرج ذلك عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله: زهير بن حرب في «العلم» (٢)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٣٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم» (١٤٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٦٣).

(٤) في (س) و(ط): «يُرفع له».

(٥) «من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله» أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٤٦) من رواية =

وكانَ بعضُ خدَمِ بعضِ الخلفاءِ يُبغِضُ أبا الفَرجِ بنَ الجوزيِّ، ويسعى في أذاه بجُهدِه، فرآه بعضُهم في منامِه وهو يذهَبُ به إلى النّارِ فسألَ عن سبب ذلكَ، فقيلَ له: كانَ يُبغِضُ ابنَ الجوزيِّ.

قالَ ابنُ الجوزيِّ: ولمّا زادَ تعصُّبُه عليّ وأذاه: لجأتُ إلى اللهِ في كفِّ شَرِّهِ[1]، فقَصَمَه اللهُ قريبًا[2].

ولمّا قتَلَ الحجّاجُ سعيدَ بنَ جُبَيرٍ كانَ النّاسُ كلُّهم محتاجِينَ إلى علمِه، فمنعَهم الانتفاعَ بعلمِه، فرُئِيَ في المنامِ أنَّ الحجّاجَ قُتِلَ بكلِّ قتيلٍ قَتلَه في الدُّنيا قَتْلَةً، وقُتِلَ بسعيدِ بنِ جُبيرٍ سبعِينَ قَتْلَةً[3].

ولهذا المعنى: كانَ أشدُّ النّاسِ عذابًا مَن قتلَ نبيًّا؛ لأنَّه سعى في الأرضِ بالفسادِ، ومَن قتلَ عالمًا فقد قتلَ خليفةَ نبيٍّ، فهو ساعٍ في الأرضِ بالفسادِ أيضًا، ولهذا قرَنَ اللهُ بينَ قَتلِ الأنبياءِ وقَتلِ العلماءِ الآمرِينَ بالمعروفِ في قولِه: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

= يوسف بن أسباط عن الثوري.

وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٠٠٨) (٢٣٧٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٠) عن يوسف بن أسباط.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٦٠٠) عن الحسن رحمهم الله.

(١) تصحفت في بعض النسخ إلى: «كشف ستره»، وفي (هـ) و(ج): «كف شر أذاه».

(٢) هو مرجان الخادم، مات سنة (٥٦٠هـ) بالسل. انظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٨/ ١٦٦)، والذي رآه في المنام هو سعد الله البصري.

(٣) ذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٧٤).

وقالَ عِكرمةُ وغيرُه منَ السَّلفِ في قولِه تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾ [المائدة: ٣٢] مَن قَتَلَ نبيًّا أو إمامَ عَدْلٍ[١] قالَ: فكأنَّما قتلَ النّاسَ جميعًا، ومَن شدَّ على عَضُدِ نبيٍّ أو إمامِ عَدْلٍ فكأنَّما أحيا النّاسَ جميعًا[٢].

* * *

قولُه ﷺ: «وفضلُ العالِمِ على العابدِ كفَضلِ القمرِ ليلةَ البَدرِ على سائرِ الكواكبِ».

وقد رُوِيَ هذا المعنى عنِ النَّبيِّ ﷺ أيضًا من حديثِ معاذٍ[٣] وأبي الدَّرداءِ[٤]، ولكنْ إسنادُهما منقطِعٌ.

وفي هذا المثَلِ: تشبيهٌ للعالِمِ بالقمرِ ليلةَ البدرِ، وهو نهايةُ كمالِه، وتمامُ نورِه. وتشبيهٌ للعابدِ بالكواكبِ، وأنَّ بينَ العالِمِ والعابدِ منَ التَّفاوتِ في الفضلِ كما بينَ القمرِ ليلةَ البدرِ والكواكبِ، والسِّرُّ في ذلكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ أنَّ الكوكبَ ضوءَه لا يعدو نفسَه، وأمّا القمرُ ليلةَ البدرِ فإنَّ نورَه يشرِقُ على أهلِ الأرضِ جميعًا، فيعمُّهم نورُه فيستضيئونَ بنورِه، ويهتدونَ به في سَيرِهم.

وإنَّما قالَ: «على سائرِ الكواكبِ»، ولم يقلْ: على سائرِ النُّجومِ؛ لأنَّ الكواكبَ

---

(١) المثبت من (س) و(ط). موافقاً للمصادر، وفي سائر النسخ: «إماماً عدلًا»، وفي بعض النسخ في هذا الموضع أو الذي يليه: «عادلاً».

(٢) إنما قاله عكرمة روايةً عن ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٤٥). وفيه عثمان بن عطاء عن أبيه عن معاذ، وعطاء لم يسمع معاذاً وفي السند خطأ في إثبات السماع.

(٤) حديث أبي الدرداء هو الذي يشرحه المصنف، فلعله سبق قلم.

هي التي لا تسيرُ ولا يُهتدَى بها، فهي بمنزلةِ العابدِ الذي نفْعُه مقصورٌ على نفْسِه، وأمّا النُّجومُ فهي التي يُهتدَى بها، كما قالَ تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فلذلكَ مَثَّلَ العلماءَ من أمَّتِه بالنُّجومِ في الحديثِ الذي سبقَ ذِكرُه.

وكذلكَ رُوِيَ عنه أنَّه قالَ: «أصحابي كالنُّجومِ بأيِّهم[1] اقتدَيتُم اهتديتُم»[2].

وقد قيلَ: إنَّ القمرَ إنَّما يستفيدُ نورَه من ضَوءِ الشَّمسِ، كما أنَّ العالِمَ نورُه مقتبَسٌ من نورِ الرِّسالةِ، فلذلكَ شُبِّه بالقمرِ ولم يُشبَّه بالشَّمسِ، وشُبِّه الرَّسولُ ﷺ بالسِّراجِ المنيرِ، لأنَّ نورَه غيرُ مقتبَسٍ من جهةِ الخلقِ، ولمّا كانَ الرَّسولُ سراجًا منيرًا يُشرِقُ نورُه على الأرضِ كانَ العلماءُ ورثتُه وخلفاؤُه مشبَّهينَ بالقمرِ عندَ تمامِ نورِه وإضاءتِه.

وفي «الصَّحيحِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إنّ أوَّل زُمرةٍ يدخلونَ الجنَّةَ على صورةِ القمرِ ليلةَ البَدرِ، ثمَّ الذينَ يلونَهم على أضوأِ كوكبٍ دُرِيٍّ في السَّماءِ»[3].

ولا يبعُدُ ـ واللهُ أعلمُ ـ أن يكونَ العلماءُ الرَّبّانيُّونَ منَ الزُّمرةِ الأولى، كما كانوا في الدُّنيا بمنزلةِ القمرِ ليلةَ البَدرِ لأهلِ الأرضِ، وقد يُشاركُهم في ذلكَ المبرِّزونَ[4]

---

(١) في (س) و(ط): «فبأيهم».

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (٧٨٣) من حديث ابن عمر، لكن أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧٠٢) بالسند نفسه من حديث ابن عباس. فأحدهما خطأ والله أعلم.

وأخرجه البيهقي من حديث عمر وابن عباس وجوَّاب بن عبيد الله في «المدخل» (١٢٤٧ ـ ١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) ثم قال: «هذا حديث متنه مشهور، وأسانيده ضعيفة، لم يثبت في هذا إسناد».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ض) ونسخة على حاشية (س): «المقربون».

منَ العُبَّادِ، لا سيَّما مَن انتفعَ النّاسُ بسماعِ أخبارِهم، ورقَّتِ القلوبُ عندَ ذكرِهم، وحنَّت إلى اقتفاءِ آثارِهم.

وأمّا الزُّمرةُ الثّانيةُ فهم عمومُ العُبَّادِ، واللهُ أعلمُ.

ولمّا ماتَ الأوزاعيُّ، وكانَ إمامَ أهلِ الشّامِ في العِلمِ، معَ شدّةِ عبادتِه، وكثرةِ خشيتِه وخوفِه منَ اللهِ عز وجل رُئِيَ في المنامِ فقالَ: ما رأيتُ هناكَ أعظمَ من دَرجةِ العلماءِ، ثمَّ درجةِ المحزونِينَ[1]. يعني: أهلَ الخوفِ منَ اللهِ والخشيةِ والحُزنِ.

وقد دلَّ هذا الحديثُ على تفضيلِ العِلمِ على العبادةِ تفضيلًا بيِّنًا، والأدلَّةُ الدّالّةُ على ذلكَ كثيرةٌ جدًّا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، يعني على الذينَ آمنوا ولم يُؤتَوا العِلمَ، كذا قالَ ابنُ مسعودٍ وغيرُه منَ السَّلفِ[2].

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه ذُكِرَ له رجلانِ: أحدُهما عابدٌ، والآخرُ عالِمٌ، فقالَ النبي ﷺ: «فَضْلُ العالِمِ على العابدِ كفَضْلي على أدناكُم». وقالَ صحيحٌ حسَنٌ غَريبٌ[3].

وخرَّجَ أيضًا هو وابنُ ماجَه من حديثِ ابنِ عبّاسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «فَقيهٌ واحِدٌ أشدُّ على الشَّيطانِ من ألفِ عابدٍ»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٦١). والرائي: يزيد بن مذكور رحمهم الله.

(٢) أخرجه ابن المنذر عن ابن مسعود كما في تفسير الآية من «الدر المنثور»، وهو أيضاً مروي عن ابن عباس رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وقال: غريب، وابن ماجه (٢٢٢).

وخرَّج ابنُ ماجه من حديث عبد الله بن عمرٍو[١] قال: خرج رسولُ اللهِ ﷺ ذات يومٍ فدَخل المسجد، فإذا هو بحلْقتين: إحداهما يقرؤون القرآنَ ويدعون الله عزَّ وجلَّ، والأخرى يتعلَّمون ويُعلِّمون، فقال رسولُ الله ﷺ: «كُلٌّ على خَيرٍ، هؤلاء يقرؤونَ القرآنَ ويدعونَ الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلَّمونَ ويُعلِّمونَ، وإنَّما بُعثتُ معلِّمًا»، ثم جلس معهم[٢].

وخرَّجَه ابنُ المباركِ في «كتابِ الزُّهدِ»، وزادَ فيه بعدَ قولِه: «وإنَّما بُعثتُ معلِّمًا»: «هؤلاءِ أفضلُ»[٣].

وخرَّجَ الطَّبرانيُّ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو عنِ النَّبيِّ ﷺ: «قليلُ الفِقهِ خيرٌ من كثيرِ العِبادةِ»[٤].

وخرَّجَ البزّارُ والحاكمُ وغيرُهما بأسانيدَ متعدِّدةٍ مرفوعًا: «فضلُ العِلمِ أحبُّ إليَّ[٥] من فضلِ العبادةِ، وخيرُ دِينِكم الوَرعُ»[٦].

---

(١) صوابه «عَمرو» كالمثبت، ووقع في (م) وغيرها دون واو.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٨).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٥٤١)، و«المعجم الأوسط» (٨٦٩٨)، و«مسند الشاميين» (٢٠٩٨).

وفي نُسَخِ المعجمَينِ سقطٌ في الإسناد، لعله من النسَّاخ. وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» في ترجمة يزيد بن رجاء بن حيوة (٣٢٠٦) عنه مرسلاً.

(٥) هكذا الحديث، وزاد فيها ناسخ (س) و(ط): «إلى الله».

(٦) أخرجه البزار (٢٩٦٩)، والحاكم (١/ ٩٢ ـ ٩٣) من حديث حذيفة رضي الله عنه. وقال البزار: «وإنما يعرف هذا الكلام من كلام مطرف». وأخرجه الحاكم أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص.

وفي مراسيلِ الزُّهريِّ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «فُضِّلَ العالِمُ على العابدِ سبعينَ درجةً، ما بينَ كلِّ دَرجتَينِ مسيرةُ حُضْرِ جَوادٍ مئةَ عامٍ»[١].

والآثارُ الموقوفةُ عنِ السَّلفِ في هذا كثيرةٌ جدًّا:

فرُوِيَ عن أبي هريرةَ وأبي ذرٍّ قالا: لَبَابٌ يتعلَّمُه الرَّجلُ أحبُّ إلينا من ألفِ ركعةٍ تطوُّعًا[٢]. وخرَّجَه ابنُ ماجَه من حديثِ أبي ذرٍّ مرفوعًا[٣].

ورُوِيَ عن أبي الدَّرداءِ قالَ: مذاكرةُ العِلمِ ساعةً خيرٌ من قيامِ ليلةٍ[٤].

ويُروَى عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّينِ»[٥]. قال أبو هريرةَ: لَأنْ أفقهَ ساعةً أحبُّ إليَّ من أن أُحييَ ليلةً أُصلِّيها حتّى أُصبِحَ[٦].

وعنه قالَ: لَأن أعلَمَ بابًا منَ العِلمِ في أمرٍ ونهيٍ أحبُّ إليَّ من سبعِينَ غَزوةً في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٧].

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: تذاكُرُ العِلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائِها[٨].

---

(١) مرسل الزهري ذكره الدارقطني في «العلل» (١٧٤٩). وذكره أيضاً مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال: والمرسل أصح. وأخرجه الدارمي (٣٦٤) من كلام الزهري مقطوعاً.
والحُضْرُ: العَدْو.

(٢) أخرجه البزار (٨٥٧٤) (٨٥٧٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٩).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٥) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٣).

(٦) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٢٤).

(٧) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٨) أخرجه عبد الرزاق عن معمر (٢٠٤٦٩)، ونحوه عند الدارمي (٦٣٨).

وصحَّ عن أبي موسى الأشعريِّ أنَّه قالَ: لَمجلِسٌ أجلسُه من عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ أوثقُ في نفسِي من عَمَلِ سنةٍ[١].

ورُوي عنِ الحسنِ أنَّه قالَ: لَأن أتعلَّمَ بابًا منَ العِلمِ فأُعلِّمَه مسلمًا أحبُّ إليَّ من أن تكونَ ليَ الدُّنيا كلُّها أجعلُها في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

وعنه قالَ: إن كانَ الرَّجلُ لَيُصيبُ البابَ منَ العِلمِ فيَعمَلُ به، فيكونُ خيرًا له من الدُّنيا وما فيها لو كانَت له فيجعلُها في الآخرةِ[٣].

وعنه قالَ: مِدادُ العلماءِ ودمُ الشُّهداءِ مجرًى واحدٌ[٤].

وعنه قالَ: ما من شَيءٍ ممّا خلقَ اللهُ أعظمَ عندَ اللهِ في عِظَمِ الثَّوابِ من طَلَبِ العِلمِ، لا حجَّ ولا عمرةَ ولا جهادَ ولا صدقةَ ولا عِتقَ، ولو كانَ العِلمُ صورةً لكانَت صورتُه أحسنَ من صورةِ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والسَّماءِ والعرشِ[٥].

وقالَ الزُّهريُّ: تعلُّمُ سُنَّةٍ أفضلُ من عبادةِ مئتي[٦] سَنَةٍ[٧].

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٥)، والإمام أحمد في «العلل» رواية عبد الله (١١٢٩).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٣٤٩)، والدارمي (٣٩٧)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص: ٤٠) وغيرهم.

(٤) ذكر نحوه عن الحسن: الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ١٦٥).

(٥) لم أجده عند غير المصنف رحمه الله.

(٦) في (ض) وحاشية (س): «ألفي».

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٦).

وقالَ سفيانُ الثَّوريُّ وأبو حنيفةَ: ليسَ شيءٌ بعدَ الفرائضِ أفضلَ من طلَبِ العِلمِ[١].

قالَ الثَّوريُّ: لا نعلمُ شيئًا منَ الأعمالِ أفضلَ من طلَبِ العلم والحديثِ لمن حَسُنَت فيه نيَّتُه، قيلَ له: وأيُّ شيءٍ النِّيَّةُ فيه؟ قالَ: يريدُ به الله والدّارَ الآخرةَ[٢].

وقالَ الشّافعيُّ: طلبُ العِلمِ أفضلُ من صلاةِ النافلةِ[٣].

ورأى مالكٌ بعضَ أصحابِه يكتبُ العِلمَ ثمَّ تركَه وقامَ يصلِّي، فقال: عَجَبًا لكَ، ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ من الذي تركتَه[٤].

وسُئلَ الإمامُ أحمدُ: أيُّما أحبُّ إليكَ: أن أصلِّيَ باللَّيلِ تطوُّعًا أو أجلسَ أنسخُ العِلمَ؟ قالَ: إذا كنتَ تنسخُ ما تعلمُ به أمرَ دِينِكَ فهو أحبُّ إليَّ[٥].

وقالَ أحمدُ أيضًا: العِلمُ لا يعدِلُه شيءٌ[٦].

وقالَ المُعافَى بنُ عِمرانَ: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ[٧].

---

(١) عزاه ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٢) إلى الشافعي وسفيان الثوري وأبي حنيفة.
وهو عن الشافعي في «المدخل» للبيهقي (١٥٨١) (١٥٨٢).
وهو عن الثوري في «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٣).
وهو عن أبي حنيفة في «مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه» للذهبي (ص: ٤٢٠) عن ابن المبارك، قال: سئل أبو حنيفة: أي الأعمال أفضل؟ قال: طلب العلم...

(٢) في (هـ) و(ج): «يريد به وجه الله...». أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٦٦). والسائل هو ابن أبي الحواري، والمجيب هو الفريابي الراوي عن سفيان.

(٣) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٥٨٠).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٢) عن ابن وهب، في صلاة ظهر أو عصر، ومراد مالك رحمه الله تفضيل طلب العلم على المبادرة لإحراز فضيلة أول الوقت.

(٥) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٣).

(٦) «سؤالات ابن هانئ للإمام أحمد» (١٩٣١).

(٧) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٠).

وممّا يدلُّ على تفضيلِ العِلمِ على جميعِ النَّوافلِ: أنَّ العِلمَ يجمَعُ جميعَ فضائلِ الأعمالِ المتفرِّقةِ، فإنَّ العِلمَ أفضلُ أنواعِ الذِّكرِ كما سبقَ تقريرُه، وهو أيضًا أفضلُ أنواعِ الجهادِ.

ويُروَى من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ والنُّعمانِ بنِ بشيرٍ مرفوعًا: «إنَّه يُوزنُ مِدادُ العلماءِ بدَمِ الشُّهداءِ، فيرجُحُ مِدادُ العلماءِ»(١).

وخرَّجَ التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَن خرَجَ في طلبِ العِلمِ فهو في سبيلِ اللهِ حتّى يرجِعَ»(٢).

ووردَ في حديثٍ آخرَ: «إذا جاءَ الموتُ طالبَ العِلمِ فهو شَهيدٌ»(٣).

وقالَ معاذُ بنُ جبلٍ: «تعلَّموا العِلمَ فإنَّ تعلُّمَه للهِ خشيةٌ، وطلَبَه عبادةٌ، ومُدارستَه تسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَه لمَن لا يعلمُه صدقةٌ، وبذلَه لأهلِه قربةٌ(٤)، وهو الأنسُ(٥) في الوَحدةِ، والصّاحبُ في الخَلوةِ(٦)(٧). بـه يُعرَفُ اللهُ ويُعبَدُ، وبه يُمجَّدُ

---

(١) حديث ابن عمر أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/ ٥٩٢) من حديث محمد بن الحسن بن الأزهر، وذكر أن هذا الحديث مما صنعت يده!

وأما حديث النعمان بن بشير، واللفظ المذكور له. فأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص: ٩٢) (ص: ٢٢٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٥) وقال: هذا لا يصح.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) وقال: حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه.

(٣) أخرجه البزار (٨٥٧٤) (٨٥٧٥) من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما.

(٤) في حاشية (س)، وعنها (ط): «لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبُل أهل الجنة». قال ناسخ (س): «هذه الزيادة التي على الهامش في غير هذه النسخة، نقلتها لأجل النفع، رزقنا الله العمل».

(٥) في (س) و(ط): «الأنيس».

(٦) في المصادر: «والصاحب في الغربة».

(٧) في حاشية (س)، ونقلها ناسخ (ط) في صلب الكتاب «والمحدِّثُ في الخَلوةِ، والدَّليلُ على السَّرّاءِ =

ويُوحَّدُ، يرفعُ اللهُ بالعلمِ أقوامًا فيجعلُهم قادةً وأئمّةً للنّاسِ، يقتدونَ بهم ويرجِعونَ إلى رأيِهم». في كلامٍ أكثرَ من هذا[١].

وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من حديثِ أبي هريرةَ وغيرِه[٢].

وممّا يدلُّ على تفضيلِ العِلمِ على العبادةِ: قِصّةُ آدمَ عليه السَّلامُ، فإنَّ اللهَ تعالى إنَّما أظهرَ فضلَه على الملائكةِ بالعِلمِ، حيثُ علَّمَه أسماءَ كلِّ شيءٍ واعترفَ الملائكةُ بالعَجزِ عن معرفةِ ذلكَ، فلمّا أنبأَهم آدمُ بالأسماءِ ظهرَ حينَئذٍ فضلُه عليهم، وقالَ الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

= والضَّراءِ، والسِّلاحُ على الأعداءِ، والزَّينُ عندَ الأخلّاءِ، يرفعُ اللهُ به أقوامًا فيجعلُهم في الخَيرِ قادةً وأئمّةً، تُقتَصُّ آثارُهم، ويُقتدَى بفِعالِهم، ويُنتهى إلى رأيِهم، ترغبُ الملائكةُ في خُلَّتِهم، وبأجنحتِها تمسحُهم، ويستغفِرُ لهم كلُّ رَطبٍ ويابسٍ، وحيتانُ البحرِ وهوامُّه، وسباعُ البرِّ وأنعامُه؛ لأنَّ العِلمَ حياةُ القلوبِ منَ الجهلِ، ومصابيحُ الأبصارِ منَ الظُّلَمِ، يبلغُ العبدُ في العلمِ منازلَ الأخيارِ، والدَّرجاتِ العُلى في الدُّنيا والآخرةِ، التَّفكُّرُ فيه يعدِلُ الصِّيامَ، ومُدارستُه تعدِلُ القيامَ، به تُوصَلُ الأرحامُ، وبه يُعرَفُ الحلالُ منَ الحرامِ، وهو إمامُ العملِ، والعملُ تابعُه، يُلهَمُه السُّعداءُ ويحرَمُه الأشقياءُ». رواه ابنُ عبدِ البرِّ». وهي ليست في سائر النسخ.

(١) أخرجه من حديث معاذ: أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٣٨)! وقال: «وهو حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي». أخرجه ابن عبد البر مرفوعاً وموقوفاً على معاذ رضي الله عنه. والحسن هنا: حسن الألفاظ لا الإسناد.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٠٠) من طريق الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه الثعلبي في «التفسير» (٧٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

وذكرَ طائفةٌ منَ السَّلفِ أنَّ الذي كتموه أنَّهم قالوا في أنفُسِهم: لن يَخلُقَ اللهُ خَلقًا إلّا ونحنُ أكرمُ عليه منه[١].

وممّا يدلُّ على فضلِ[٢] العِلمِ: أنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ إنَّما فُضِّلَ على الملائكة المشتغِلينَ بالعبادةِ بالعِلمِ الذي خُصَّ به، فإنَّه صاحبُ الوحيِ الذي ينزلُ به على الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وكذلكَ خواصُّ الرُّسلِ إنَّما فُضِّلوا على غَيرِهم منَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بمزيدِ العِلمِ المقتَضِي لزيادةِ المعرفةِ باللهِ والخشيةِ له؛ ولهذا وَصفَ اللهُ تعالى في كتابِه محمّدًا ﷺ ومدَحَه بالعِلمِ الذي اختصَّه به، وامتنَّ به عليه في مواضِعَ كثيرةٍ، وأمرَه أن يُعلِّمَه لأمته[٣]، فأوَّلُ ما ذكَّرَه بالعِلمِ وبتعليمِه في قصَّةِ إبراهيمَ حينَ دعا ربَّه لأهلِ البيتِ الحرامِ أن يبعَثَ فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتِه [ويزكيهم][٤] ويُعلِّمُهم الكتابَ والحِكمةَ، ثمَّ امتنَّ تعالى علينا بأن بعثَ فينا رسولًا منّا، وهو محمَّدٌ ﷺ بهذه الصِّفةِ، فقالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وأوَّلُ ما أنزَلَ على محمَّدٍ ﷺ منَ القرآنِ: ذِكرُ العِلمِ وفضلِه، وهو قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] وامتنَّ على محمَّدٍ ﷺ بالعِلمِ في مواضِعَ، كقولِه تعالى:

---

(١) في (ض): «منهم» وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ٤٩٤) (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣) عن الحسن وقتادة والربيع بن أنس. وأخرجه ابن أبي حاتم (٣٥٦) عن أبي العالية.

(٢) في (هـ) و(ج): «تفضيل».

(٣) في (ض) و(هـ): «الأمة».

(٤) «ويزكيهم» من (ض) و(س) و(ط)، ولا توجد في سائر النسخ، وحقها أن تكون بعد: «ويعلمهم الكتاب والحكمة» لتطابق ترتيب دعاء الخليل عليه السلام (سورة البقرة: ١٢٩).

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وأمرَه أن يسألَ ربَّه أن يزيده علمًا فقالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وكانَ ﷺ يقولُ: «أنا أعلمُكم باللهِ وأشدُّكم له خَشيةً»[١].

وامتنَّ اللهُ تعالى علينا أن بعثَ فينا هذا الرَّسولَ ﷺ الذي يُعلِّمُنا ما لم نكنْ نعلمُ، وأمرَنا بشُكرِ هذه النِّعمةِ، كما قالَ تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ ـ ١٥٢].

وأخبرَنا سبحانَه أنَّه ما[٢] خلَقَ السَّماواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ إلا لنعلَمَ بذلكَ قُدرتَه وعِلمَه، فيكونَ دليلًا على معرفتِه ومعرفةِ صِفاتِه، كما قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ومدحَ في كتابِه العلماءَ في مواضِعَ كثيرةٍ، وقد سبقَ ذِكرُ بعضِها، وأخبرَنا أنَّه إنَّما يخشاه من عبادِه العلماءُ، وهم العلماءُ به، قالَ ابنُ عبّاسٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] قالَ: إنَّما يخافُني من عِبادي مَن عرَفَ جلالي وكِبريائي وعظَمَتي[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١) (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظهما: «.. أعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

(٢) في جميع النسخ: «إنما»، ولعل صوابها: «ما» كما أثبته، ليستقيم معنى الجملة.

(٣) لم أجد هذا الأثر، وذكر الواحدي في «البسيط» (١٨/ ٤٢١) عن ابن عباس «إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني».

فأفضلُ العِلمِ العِلمُ باللهِ، وهو العِلمُ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه الذي يُوجِبُ لصاحبِه معرفةَ اللهِ وخشيتَه، ومحبّتَه وهيبتَه، وإجلالَه وعظَمتَه، والتَّبتُّلَ إليه والتَّوكُّلَ عليه، والرِّضا عنه، والاشتغالَ به دونَ خَلقِه.

ويتبعُ ذلكَ: العِلمُ بملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ وتفاصيلِ ذلكَ، والعلمُ بأوامرِ اللهِ ونواهيه وشرائعِه وأحكامِه، وما يحبُّه من عبادِه منَ الأقوالِ والأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ، وما يكرهُه من عبادِه منَ الأقوالِ والأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ.

ومَن جمعَ هذه العلومَ فهو منَ العلماءِ الرَّبانيِّينَ، العلماءِ باللهِ العلماءِ بأمرِ اللهِ، وهم أكملُ ممَّن قصُرَ عِلمُه على العِلمِ باللهِ دونَ العِلمِ بأمرِه وبالعكسِ. وشاهِدُ هذا: النَّظرُ في حالِ الحَسنِ، وابنِ المسيِّبِ، والثَّوريِّ، وأحمدَ، وغيرِهم منَ العلماءِ الرَّبانيِّينَ، وحالِ: مالكِ بنِ دينارٍ، والفُضيلِ بنِ عياضٍ، ومعروفٍ، وبشرٍ، وغيرِهم منَ العارفِينَ، فمَن قايسَ بينَ الحالَينِ عرَفَ فضلَ العلماءِ باللهِ وبأمرِه على العلماءِ باللهِ فقط، فما الظَّنُّ بتفضيلِ العلماءِ باللهِ وبأمرِه على العلماءِ بأمرِه فقط؟ فإنَّ هذا واضحٌ لا خفاءَ به، وإنَّما يظُنُّ بعضُ مَن لا عِلمَ له تفضيلَ العُبَّادِ على العلماءِ؛ لأنَّهم تخيَّلوا أنَّ العلماءَ هم العلماءُ بأمرِ اللهِ فقط، وأنَّ العُبَّادَ هم العلماءُ باللهِ[1]، فرجَّحوا العالِمَ باللهِ على العالِمِ بأمرِه وهذا حقٌّ، ونحنُ إنَّما نقولُ: إنَّ العلماءَ باللهِ والعلماءَ بأمرِه أفضلُ منَ العُبَّادِ ولو كانَ العبادُ منَ العلماءِ باللهِ؛ لأنَّ العلماءَ الرَّبّانيِّينَ شاركوا العُبَّادَ في فضيلةِ العِلمِ باللهِ، بل ربَّما زادوا عليهم فيه، وانفردوا بفضيلةِ العِلمِ بأمرِ اللهِ وبفضيلةِ دعوةِ الخلقِ إلى اللهِ وهدايتِهم إليه،

(١) في (س) و(ط): «العلماء بالله وحده».

وهو مقامُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ ولذلكَ[١] كانوا خلفاءَ الرُّسل وورثتهم، كما سنذكرُه[٢] إن شاءَ اللهُ تعالى.

وهذا القَدرُ الذي انفردوا به عنِ العُبَّادِ أفضلُ من القدرِ الذي انفردَ به العُبَّادُ من نوافلِ العباداتِ، فإنَّ زيادةَ المعرفةِ بما أنزلَ اللهُ على رسولِه توجِبُ زيادةَ المعرفةِ باللهِ والإيمانِ به، وجنسُ المعرفةِ باللهِ والإيمانِ به أفضلُ من جنسِ العملِ بالجوارحِ والأركانِ، ولكن مَن لا علمَ له تعظُمُ في نفْسِه العباداتُ على العِلمِ؛ لأنَّه لا يتصوَّرُ حقيقةَ العِلمِ ولا شرفَه ولا قُدرةَ له على ذلكَ، وهو يتصوَّرُ حقيقةَ العباداتِ وله قُدرةٌ على جِنسِها في الجملةِ.

ولهذا تجدُ كثيرًا ممَّن لا علمَ لديه يُفضِّلُ الزُّهدَ في الدُّنيا على العلومِ والمعارفِ، وسببُه ما ذَكرْناه، وهو أنَّه لا يتصوَّرُ معنى العلمِ والمعرفةِ، ومَن لا يتصوَّرُ شيئًا لا يَقدُرُ[٣] في صدرِه عظمتُه، وإنَّما يتصوَّرُ الجاهلُ بالعِلمِ حقيقةَ الدُّنيا، وقد عظُمَت في صدرِه فعظُمَ عندَه مَن تركَها، ولو تصوَّرَ حقارةَ الدُّنيا وهوانَها على اللهِ لم يعظُمْ عندَه قَدرُ تركِها، كما قالَ محمَّدُ بنُ واسعٍ وقد رأى شُبّانًا، فقيلَ له: هؤلاءِ زُهّادٌ، فقالَ: وأيُّ شيءٍ قَدرُ الدُّنيا حتى يُمدَحَ مَن زهِدَ فيها[٤]؟

وقالَ أبو سليمانَ الدَّارانيُّ قريبًا من هذا المعنى أيضًا[٥].

---

(١) من (م)، وتصحفت في سائر النسخ إلى: «وكذلك».

(٢) في (س) و(ط): «سيأتي ذكره».

(٣) في (س) و(ط): «يَقِرُّ».

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٠١١).

(٥) قال: «الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، فما قيمة جناح بعوضة حتى يُزهد فيها»؟! أخرجه الخطيب في «الزهد والرقائق» (٦٠).

فالمفتخِرُ بالزُّهدِ في الدُّنيا كأنَّه يفتخِرُ بتركِ نزرٍ يسيرٍ من شيءٍ هو أقلُّ عندَ اللهِ من جناحِ بعوضةٍ، وهذا هو أحقرُ من أن يُذكَرَ فضلًا عن أن يُفتَخَرَ به.

ولهذا أيضًا يعظُمُ في نفوسِ كثيرٍ منَ النّاسِ ذِكرُ الخَوارقِ والكراماتِ، ويرونَها أفضلَ ممّا أُعطيَه العلماءُ منَ المعرفةِ باللهِ وبشَرعِه، وهذا من أعظمِ الغَلطِ، وسببُه: قِلّةُ تصوُّرِهم حقيقةَ المعرفةِ والعِلمِ، وإنَّما يتصوَّرونَ حقيقةَ الخَوارقِ، لأنَّها من جنسِ القُدرةِ والسُّلطانِ في الدُّنيا، الذي يعجِزُ أكثرُ النّاسِ عنه.

وأمّا العلماءُ باللهِ فلا تعظُمُ هذه الخوارقُ عندَهم، بل يرَونَ الزُّهدَ فيها، وأنَّها من نوعِ[1] الفِتنةِ والمحنةِ وبسطِ الدُّنيا على العبدِ، فيخافونَ منَ الاشتغالِ بها والوقوفِ معَها الانقطاعَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقد ذكرَ أبو طالبٍ المكيُّ هذا المعنى في كتابِه عن كثيرٍ منَ العارفِينَ، منهم أبو يزيدَ، ويحيى بنُ معاذٍ، وسهلٌ، وذو النُّونِ، والجُنَيدُ، وغيرُهم[2].

وقيلَ لبعضِهم: إنَّ فلانًا يمشي على الماءِ، فقالَ: مَن مكَّنه اللهُ من مخالفةِ هواه فهو أفضلُ[3].

وكانَ أبو حفصٍ النَّيسابوريُّ يومًا جالسًا معَ أصحابِه خارجَ المدينةِ، وهو يتكلَّمُ عليهم فطابَت أنفُسُهم، فجاءَ أُيَّلٌ[4] قد نزلَ منَ الجبلِ حتى برَكَ بينَ يديه، فبكَى بُكاءً شديدًا وانزعَجَ، فسُئلَ عن سببِ بكائِه، فقالَ: رأيتُ اجتماعَكم حولي، وقد طابَت

---

(١) في (هـ) و(ج): «أنواع».

(٢) انظر: الفصل الثاني والثلاثين: شرح مقام الزهد (٢/ ٨٤٤ ـ ٨٤٥ ـ ط: دار التراث القاهرة).

(٣) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ٢٦٧).

(٤) الذَّكَر في الأوعال، وضبطها ناسخ (م): «أَيْلٌ»!

قلوبُكم، فوقعَ في قلبي لو أنَّ لي شاةً ذبحتُها[١]، ودعوتُكم عليها، فما تحكَّم هذا الخاطرُ حتى جاءَ هذا الوحشُ فبركَ بينَ يديَّ، فخُيِّلَ لي أنِّي مثلُ فِرعونَ الذي سألَ ربَّه أن يُجرِيَ له النِّيلَ فأجراه له، قلتُ: فما يُؤمِّنُني أن يكونَ اللهُ يُعطيني كلَّ حظٍ لي في الدُّنيا وأبقى في الآخرةِ فقيرًا لا شيءَ لي؟، فهذا الذي أزعَجَني[٢].

فأحوالُ العارِفِينَ كلُّها تـدلُّ على أنَّهم لم يكونوا يلتفتونَ إلى هذه الخوارقِ، وإنَّما كانَ اهتمامُهم بمعرفةِ اللهِ وخشيتِه، ومحبَّتِه والأُنسِ به، والشَّوقِ إلى لقائِه وطاعتِه، والعلماءُ الرَّبّانيُّونَ يشاركونَهم في ذلكَ ويزيدونَ عليهم بالعِلمِ بأمرِ اللهِ وبدعوةِ الخلقِ إلى اللهِ، وهذا هو الفضلُ العظيمُ عندَ اللهِ وملائكتِه ورسلِه، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: مَن عَلِمَ وعملَ وعلَّمَ فذلكَ[٣] يُدعَى عظيمًا في ملكوتِ السَّماءِ[٤].

وإذا ظهرَ فضلُ العالِمِ على العابدِ، فإنَّما المرادُ: تفضيلُه على العابدِ بعِلمٍ، فأمّا العابدُ بغيرِ علمٍ فإنَّه مذمومٌ؛ ولهذا شبَّهه السَّلفُ بالسَّائرِ على غيرِ طريقٍ، وبأنَّه يُفسِدُ أكثرَ ممّا يُصلحُ، وبأنَّه كالحمارِ في الطاحونة[٥] يدورُ حتَّى يهلِكَ منَ التَّعبِ ولا يبرحُ من مكانِه[٦]، وهذا أشدُّ ظهورًا ووضوحًا من أن يحتاجَ إلى بسطِ القولِ فيه.

* * *

---

(١) في (س) و(ط): «ذبحتها لكم».

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (١٤٠).

(٣) في (س) و(ط): «فذلك الذي».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٣٠)، وأبو خيثمة في «العلم» (٧) من كلام المسيح عليه السلام.
وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص: ٢٦٤) من كلام سفيان رحمه الله.
وأخرجه الترمذي عقب الحديث (٢٦٨٥) من كلام الفضيل بن عياض رحمه الله.

(٥) في (س) و(ط): «الطاحون»، وفي حاشية (س): «مثل عجيب».

(٦) في (هـ) و(ج): «ولا يبرحُ مكانَه».

وَلنضرِبْ هاهنا مثلًا جامعًا لأحوالِ الخلقِ كلِّهم بالنِّسبةِ إلى دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، وانقسامِهم في إجابةِ دعوتِه إلى: سابقٍ، ومقتصِدٍ، وظالمٍ لنفْسِه، وبه يظهرُ فضلُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ على غيرِهم منَ النّاسِ أجمعينَ، فنقولُ:

مثلُ ذلكَ كمَثلِ رسولٍ قدِمَ من بلدِ الملِكِ الأعظمِ، فأدَّى رسالةَ الملِكِ إلى سائرِ البلدانِ، وظهرَ لهم صِدقُه في رسالتِه، فكانَ مضمونُ رسالتِه التي أدّاها من عندِ الملِكِ الأعظمِ إلى رعيّتِه أنَّ هذا الملِكَ لا إحسانَ أتمُّ من إحسانِه، ولا عدلَ أكملُ من عدلِه، ولا بطشَ أشدُّ من بطشِه، وأنَّه لابدَّ أن يستدعيَ الرَّعيّةَ كلَّهم إليه ليُقيموا عندَه، فمَن قَدِمَ عليه بإحسانٍ جزاه بإحسانِه أفضلَ الجزاءِ، ومن قَدِمَ عليه بإساءةٍ جازاه بإساءتِه أشدَّ الجزاءِ، وأنَّه يحبُّ كذا وكذا ويكرَه كذا وكذا، ولم يدعْ شيئًا ممّا تعملُه الرَّعيّةُ إلّا أخبرَهم بما يحبُّه الملِكُ منه وبما يكرهُه، وأمرَهم بالتَّجهُّزِ والسَّيرِ إلى دارِ الملِكِ التي فيها الإقامةُ، وأخبرَهم بخرابِ جميعِ البُلدانِ سِوى ذلكَ البلدِ، وأنَّ مَن لم يتجهَّزْ للسَّيرِ بعثَ إليه الملِكُ من يزعِجُه عن وَطنِه، ونقَلَه[1] منه على أسوأِ حالٍ، وجعلَ يصِفُ صفاتِ هذا الملِكِ الحُسنى منَ الجمالِ والكمالِ والجلالِ والإفضالِ.

فانقسَمَ النّاسُ في إجابةِ هذا[2] الرَّسولِ الدّاعي إلى الملِكِ أقسامًا عديدةً:

فمنهم مَن صدَّقَه، ولم يكنْ له همٌّ إلّا السُّؤالُ عمّا يحبُّ هذا الملِكُ منَ الرَّعيّةِ استصحابَه إلى دارِه عندَ السَّيرِ إليه، فاشتغَلَ بتحصيله لنفْسِه، وبدعاءِ مَنْ يمكنُه دُعاؤه منَ الخلقِ إلى ذلكَ، وعمّا يكرَهُه هذا الملِكُ، فاجتنبَه وأمرَ النّاسَ باجتنابِه، وجعلَ همَّه الأعظمَ السُّؤالَ عن صفاتِ الملِكِ وعَظَمتِه وإفضالِه، فزادَ بذلكَ محبّتُه

---

(١) في (س) و(ط): «وينقله».

(٢) في (هـ) و(ج): «دعوة هذا».

لهذا الملِكِ وإجلالُه والشَّوقُ إلى لقائِه، فارتحلَ إلى الملِكِ مستصحبًا لأنفَسِ ما يقدِر عليه ممّا يحبُّه الملِكُ ويرتضيه، واستصحَبَ معَه رَكبًا عظيمًا على مثلِ حالِه، سارَ بهم إلى دارِ الملِكِ، وقد عرَفَ من جهةِ ذلكَ الدَّليلِ الذي هو الرَّسولُ الصّادقُ أقربَ الطُّرُقِ التي يُتوصَّلُ بالسَّيرِ فيها إلى الملِكِ، وما ينفعُ من التَّزوُّدِ للسيرِ فيها[1]، وعَمِلَ بمقتضى ذلكَ في السَّيرِ هو ومَن اتَّبعَه. فهذه صِفةُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، الذينَ اهتدَوا وهدَوا الخَلقَ معَهم إلى طريقِ اللهِ، وهؤلاءِ يقدَمونَ على الملِكِ قُدومَ الغائبِ على أهلِه المنتظِرينَ لقُدومِه، المشتاقِينَ إليه أشدَّ الشَّوقِ.

وقسمٌ آخرونَ: اشتغلوا بالتَّأهُّبِ لمسيرِهم بأنفُسِهم إلى الملِكِ، ولم يتفرَّغوا لاستصحابِ غَيرِهم معَهم، وهذه صفةُ العُبَّادِ الذينَ تعلَّموا ما ينفعُهم في خاصّةِ أنفُسِهم، واشتغلُوا بالعَملِ بمقتضاه.

وقسمٌ آخرونَ: تشبَّهوا بأحدِ القِسمَينِ، وأظهروا للنّاسِ أنَّهم منهم، وأنَّ قصدَهم التَّزوُّدُ للرَّحيلِ، وإنَّما كانَ قصدُهم استيطانَ دارِهم الفانيةِ، وهمُ العلماءُ والعُبَّادُ المراؤونَ بأعمالِهم[2]؛ لينالوا بذلكَ مصالحَ دارِهم التي هم بها مستوطِنُونَ، وحالُ هؤلاءِ عندَ الملِكِ الأعظمِ إذا قدِموا عليه شرُّ حالٍ، ويُقالُ لهم: اطلبوا جزاءَ أعمالِكم ممَّن عملتُم لهم فليسَ لكم عندَنا من خَلاقٍ، وهم أوَّلُ مَن تُسعَّرُ بهم النّارُ من أهلِ التَّوحيدِ[3].

وقسمٌ آخرونَ: فَهِمُوا ما أدّاه الرَّسولُ من رسالةِ الملِكِ، لكنَّهم غلَبَ عليهم

---

(١) في (س) و(ط): «للمسير فيها إلى الملك».

(٢) في (هـ): «بعملهم»، وفي (ج): «العلماء المراؤون بعلمهم».

(٣) كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النَّار. أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الكَسلُ والتَّقاعدُ عنِ التَّزوُّدِ للسَّفرِ واستصحابِ ما يحبُّ المِلكُ واجتنابِ ما يكرهُه، وهؤلاءِ العلماءُ الذينَ لم يعملوا بعلمِهم، وهم على شَفا هَلَكةٍ، وربَّما انتفعَ غيرُهم بمعرفتِهم ووصفِهم لطريقِ السَّيرِ، فسارَ المتعلِّمونَ فنجَوا، وانقطعَ مَنْ تعلَّموا منه في الطَّريقِ[1] فهلَكوا.

وقسمٌ آخرونَ: صدَّقوا الرَّسولَ فيما دعا إليه من دعوةِ المِلكِ، لكنَّهم لم يتعلَّموا[2] طَريقَ السَّيرِ، ولا معرفةَ تفاصيلِ ما يحبُّه المِلكُ وما يكرهُه، فساروا بأنفُسِهم ورمَوا نفوسَهم في طُرُقٍ شاقَّةٍ، ومَفاوزَ[3] وقِفارٍ وَعِرةٍ، فهلَكَ أكثرُهم، وانقطعوا في الطَّريقِ، ولم يصِلوا إلى دارِ المِلكِ وهؤلاءِ الذينَ يعملونَ بغيرِ علمٍ.

وقسمٌ: لم يهتمُّوا بهذه الرِّسالةِ، ولا رفعوا بها رأسًا، واشتغَلوا بمصالحِ إقامتِهم في أوطانِهم التي أخبرَ الرَّسولُ بخرابِها، وهؤلاءِ:

منهم: مَن كذَّبَ الرَّسولَ بالكليَّةِ.

ومنهم: مَن صدَّقَه بقلوبِهم ولكنَّه لم يشتغِلْ بمعرفةِ ما دُعِيَ عليه ولا بالعملِ[4] به، وهؤلاءِ عمومُ الخلقِ المعرِضونَ عنِ العلمِ والعملِ.

ومنهم: الكفَّارُ والمنافقونَ.

ومنهم: العُصاةُ الظَّالمونَ لأنفُسِهم.

فلم يشعروا إلَّا وقد طَرَقَهم داعي المَلِكِ، فأخرجَهم عن أوطانِهم، واستدعاهم إلى المَلِكِ فقَدِموا عليه قُدومَ الآبقِ على سيِّدِه الغضبانِ.

---

(١) في (س) و(ط): «فانقطع من تعلموا منه الطريق».

(٢) في (س) و(ط): «لم يتعلموا منه».

(٣) في (س) و(ط): «ومخوف».

(٤) في (س) و(ط): «بالعلم». وكتب فوقه

فإذا تأمَّلتَ أقسامَ النَّاسِ المذكورةَ، لم تجِدْ أشرفَ ولا أقربَ عندَ المَلِكِ منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، فهم أفضلُ الخَلقِ بعدَ المرسَلِينَ.

* * *

قولُه ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورَثةُ الأنبياءِ».

يعني أنَّهم وَرِثوا ما جاءَ به الأنبياءُ عليهم السلام منَ العِلمِ، فخلَفوا الأنبياءَ في أُمَمِهم بالدَّعوةِ إلى اللهِ وإلى طاعتِه، والنَّهيِ عن معاصي اللهِ والذَّبِّ عن دِينِ اللهِ.

وفي مراسيلِ الحسنِ عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «رحمةُ اللهِ على خُلفائي»، قالوا: يا رسولَ اللهِ، ومَن خُلفاؤُكَ؟ قالَ: «الذينَ يُحيونَ سُنَّتي[1] ويعلِّمونَها عبادَ اللهِ»[2].

ورُوِيَ نحوُه من حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه مرفوعًا أيضًا[3].

فالعَالِمُ في مقامِ الرُّسُلِ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه، كما قالَ ابنُ المُنْكَدِرِ: إنَّ العالِمَ بينَ اللهِ وبينَ خَلْقِه فلينظُرْ كيفَ يدخُلُ عليهم[4].

---

(١) زاد في (س) و(ط): «من بعدي» وليست في المصادر.

(٢) أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٧)، وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٢٠) على أنه من مراسيل الحسن، كما ذكر (٢٢٢).
لكن أبا إسماعيل الهروي أخرجه في «ذم الكلام» (٤/ ٢٢٨) بإسناد ابن عبد البر على أنه من رواية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. لا الحسن البصري رحمه الله
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٦١).

(٣) أخرجه ابن السني في «رياضة المتعلمين» (٣٣٥) وغيره، وفي الحديث هذا الذي يروى عن علي رضي الله عنه مقال مشهور.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ: البيهقي في «المدخل» (١٩٠٣). وأخرجه بنحوه: الدارمي (١٣٩).

وقالَ ابنُ عُيينةَ: أعظمُ النّاسِ منزلةً مَن كانَ بينَ اللهِ وبينَ خَلقِه، الأنبياءُ والعلماءُ[١].

وقالَ سهلٌ التُّستَرِيُّ: مَن أرادَ أن ينظُرَ إلى مجالِسِ الأنبياءِ فلينظُرْ إلى مجالِسِ العلماءِ، يجيءُ الرَّجلُ فيقولُ: يا فلانُ، أيْشٍ تقولُ في رجلٍ حلَفَ على امرأتِه بكذا وكذا؟ فيقولُ: طَلَقَت امرأتُه، ويجيءُ آخرُ فيقولُ: ما تقولُ في رجلٍ حلَفَ على امرأتِه بكذا وكذا؟ فيقولُ: ليسَ يحنَثُ بهذا القولِ، وليسَ هذا إلّا لنبيٍّ أو لعالِمٍ، فاعرفوا لهم ذلكَ[٢].

ورأَت امرأةٌ مِنَ العابداتِ ـ في زمنِ الحسنِ البصريِّ ـ في منامِها كأنَّها تستَفتي في المستَحاضةِ، فقيلَ لها: أتستفتينا[٣] وفيكم الحسنُ وفي يدِه خاتَمُ جبريلَ عليه السَّلامُ[٤]؟

وفي هذا إشارةٌ إلى وِراثةِ الحسنِ ما جاءَ به جَبريلُ منَ الوحيِ بخاتمه[٥].

---

(١) روي عن سفيان بن عيينة من وجوه.

وهذا اللفظ أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٩).

وأخرجه ابن أبي خيثمة في «التاريخ الكبير» (السفر الثالث (٩٣٤))، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٣٩).

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٤٩).

(٣) في (س) و(ط): «أتستفتين».

(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائده على العلل ومعرفة الرجال» (٦٠٨٨)، وابن أبي الدنيا في «المنامات» (١٣٢).

(٥) في النسخ: «بختامه» لكن ناسخ (س): كشط التاء قبل الألف، ثم زادها قبل الميم: «بخاتمه»، ولعله الأصوب.

ورأى بعضُ العلماءِ النَّبيَّ ﷺ في المنام فقالَ له: يا رسولَ الله، قد اختُلفَ علينا في مالكٍ واللَّيثِ، أيُّهما أعلمُ؟ فقالَ ﷺ: مالكٌ ورثَ جدِّي[١]. يعني: وَرِثَ عِلمي.

ورأى بعضُهم في منامه النَّبيَّ ﷺ قاعدًا في المسجدِ، والنّاسُ حولَه، ومالكٌ قائمٌ بينَ يدَيه، وبينَ يدَي رسولِ اللهِ ﷺ مِسكٌ، وهو يأخذُ منه قَبضةً فيدفعُها إلى مالكٍ، ومالكٌ ينثرها على النّاسِ، فأوَّلَ الناسُ ذلكَ لمالكٍ: العلمَ واتِّباعَ السُّنّةِ[٢].

ورأى الفضيلُ بنُ عِياضٍ في منامِه النَّبيَّ ﷺ جالِسًا وإلى جانبه فُرْجةٌ فجاءَ لِيجلِسَ، فقالَ له النَّبيُّ ﷺ: هذا مجلسُ أبي إسحاقَ الفَزاريِّ. فسُئِلَ بعضُهم: أيُّهما كانَ أفضلَ أبو إسحاقَ أو فُضَيلٌ؟ فقالَ: كانَ فُضَيلٌ رجُلَ نفْسِه، وكانَ أبو إسحاقَ رجُلَ عامّةٍ[٣].

يشيرُ إلى أنَّه كانَ عالمًا ينتَفِعُ النّاسُ بعِلمِه، وكانَ فُضيلٌ عابدًا نَفْعُه لِنفْسِه.

والعلماءُ في الآخرةِ يتلونَ الأنبياءَ في الشَّفاعةِ وغيرِها، كما في التِّرمذيِّ عن عثمانَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ: «يشفَعُ يومَ القيامةِ الأنبياءُ، ثمَّ العلماءُ، ثمَّ الشُّهداءُ»[٤].

وقالَ مالكُ بنُ دِينارٍ: بلَغَنا أنَّه يُقالُ للعابدِ: ادخلِ الجنّةَ، ويقالُ للعالِمِ: قِفْ فاشفعْ[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل» (ص: ٢٨). والرائي: هو محمد بن رمح رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المنامات» (٢٥٤). والرائي: أبو عبد الله مولى الليثيين.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٥٤). والسائل هو إبراهيم بن سعيد الجوهري، سأل أبا أسامة الذي رواه عن الفضيل.

(٤) سبق قلم المؤلف رحمه الله، فكتب: «الترمذي». وإنما أخرج هذا الحديث ابن ماجه (٤٣١٣).

(٥) لم أجده عن مالك بن دينار عند غير المصنف رحمه الله.

وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من حديثِ أبي هريرةَ بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا[١].

وللعلماءِ الكلامُ في الموقفِ بالحقِّ إذا اشتبَهتِ الأمورُ على النّاسِ، فإذا ظنَّ أهلُ الموقِفِ أنَّهم لم يلبَثوا في قُبورِهم إلّا ساعةً بيَّنَ أهلُ العِلمِ أنَّ الأمرَ على خِلافِ ذلكَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ ـ ٥٦].

والعلماءُ يخبِرونَ يومَ القيامةِ بخِزيِ المشركِينَ باللهِ، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧].

وقد رُوِيَ في حديثٍ مرفوعٍ: «إنَّ النّاسَ يحتاجونَ في الجنّةِ إلى العلماءِ، كما كانوا يحتاجونَ إليهم في الدُّنيا، إذا استدعَى الرَّبُّ أهلَ الجنّةِ لزيارتِه، وقالَ لهم: سَلوني ما شئتم، فيلتَفِتونَ إلى العلماءِ منهم، فيقولونَ لهم: سَلوه رُؤيتَه، فما في الجنّةِ أعظمُ منها»[٢].

وهذا كلُّه يُبيِّنُ ألّا درجةَ بعدَ النُّبوّةِ أفضلُ من درجةِ العلماءِ، وقد يُطلَقُ اسمُ العلماءِ ويُرادُ إدخالُ الأنبياءِ فيهم، كما في قولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فلم يُفرِدِ الأنبياءَ بالذِّكرِ، بل أدخلَهم في مسمَّى العلماءِ، وكفى بهذا شَرفًا للعلماءِ أنَّهم يسمَّونَ باسمٍ يجتمعونَ هم والأنبياءُ فيه.

---

(١) الذي وجدته من حديث أبي هريرة: هو ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٨١ ـ ٨٢) في حديث طويل في فضل أويس القرني وفيه: «قيل للعباد: ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف فاشفع».

(٢) أخرج ابن عساكر هذا المعنى من حديث جابر رضي الله عنه في «تاريخ دمشق» (٥١/ ٥٠).

ومن هنا قالَ مَن قالَ: إنَّ العلماءَ العامِلِينَ هم أولياءُ اللهِ، كما قالَ أبو حنيفةَ والشَّافعيُّ: إن لم يكنِ الفقهاءُ والعلماء أولياءَ اللهِ فليسَ للهِ وليٌّ[١].

قالَ الإمامُ أحمدُ في أهلِ الحديثِ: إنَّهم هم الأبدالُ[٢].

* * *

قولُه ﷺ: «وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخذَه أخذَ بحظٍّ وافرٍ».

المرادُ بهذا: أنَّ العلماءَ وَرِثوا الأنبياءَ فيما خَلَّفُوه، وأنَّ الذي خلَّفَه الأنبياءُ هو: العِلمُ النّافعُ، فمَن أخذَ العِلمَ، وحصَلَ له، فقد حصَلَ له الحظُّ العظيمُ الوافرُ الذي يُغبَطُ به صاحبُه.

ورأى ابنُ مسعودٍ قَومًا في المسجدِ يتعلَّمونَ، فقالَ رجلٌ: على ما اجتمعَ هؤلاءِ؟ قال على ميراثِ محمَّدٍ ﷺ يقتسمونَه[٣].

وخرَجَ أبو هريرةَ إلى السُّوقِ، فقالَ لأهلِه[٤]: تركتُم ميراثَ محمَّدٍ ﷺ يُقتَسَمُ في المسجدِ وأنتم هاهنا[٥]؟

فتَرِكةُ النَّبيِّ ﷺ وميراثُه هو هذا الكتابُ الذي جاءَ به، معَ السُّنّةِ المفسِّرةِ له، المبيِّنةِ لمعانِيه.

---

(١) أخرجه عن الإمامين: الخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٥٠).

(٢) أخرجه عن الإمام أحمد: الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٠١): «إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فمن يكون؟».

(٣) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٨٨).

(٤) أي لأهل السوق.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩).

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عبّاسٍ أنَّه سُئِلَ: أتركَ النَّبيُّ ﷺ من شَيءٍ؟ قالَ: ما تركَ إلّا ما بينَ الدَّفَّتينِ، يعني دَفَّتي المصحفِ[١].

وفي الصَّحيحَينِ عنِ ابنِ أبي أَوفَى أنَّه سُئِلَ: هل وصَّى رسولُ اللهِ ﷺ بشيءٍ؟ قالَ: أوصى بكتابِ اللهِ[٢].

وخطبَ ﷺ في مرجِعِه من حَجّةِ الوداعِ بغديرِ خُمٍّ فقالَ: «إنَّما أنا بشرٌ يُوشِكُ أن يأتيَني رسولُ ربِّي فأُجيبَه، وإنِّي تاركٌ فيكم الثَّقلَينِ، أوَّلُهما: كتابُ اللهِ فيه الهدى والنُّورُ، مَن استمسَكَ به، وأخذَ به كانَ على الهُدى، ومَن أخطأَه ضَلَّ». خرَّجه مسلمٌ[٣].

وفي «المسندِ» عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو قالَ: خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ يومًا كالمودِّعِ، فقالَ: «أنا النَّبيُّ الأميُّ ـ قالَ ذلكَ ثلاثَ مرّاتٍ ـ ولا نبيَّ بعدِي، أُوتيتُ فواتِحَ الكَلِمِ وجَوامِعَه، وعلمتُ كم خَزنةُ النّارِ وحملةُ العرشِ، وعُوفيتُ وعُوفِيَتْ أُمَّتي، فاسمعوا وأطيعوا ما دُمتُ فيكم، فإذا ذُهِبَ بي فعليكم بكتابِ اللهِ أحلُّوا حلالَه وحرِّموا حرامَه»[٤].

* * *

قولُه ﷺ: «إنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثُوا العِلمَ».

يريدُ أنَّه لم يُورَثْ عنهم سِوى العِلمِ، وهذا يُبيِّنُ أن المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وورث سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]، وقولِه تعالى عن زكريّا أنَّه قالَ: ﴿هب[٥] لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٠)، ومسلم (١٦٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٠٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٠٦).

(٥) في التلاوة: ﴿فَهَبْ﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥ ـ ٦]، إنَّما أُريدَ به ميراثُ العِلمِ والنُّبوّةِ لا المالِ، فإنَّ الأنبياءَ لا يجمعونَ مالًا يتركونَه بعدَهم ولا يُورَثُ عنهم، ولهذا قالَ ﷺ: «لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةٌ»(١).

وقالَ: «ما تركتُ بعدَ مُؤنةِ عامِلي ونفقةِ عيالي فهو صدَقةٌ»(٢). وما ترَكَ ﷺ إلّا دِرعَه، وسِلاحَه، وبغلتَه البيضاءَ، وأرضًا جعلَها صدقةً(٣)، فلم يُخلِّفْ سِوى آلةِ الجهادِ الذي بُعِثَ به، والأرضُ التي كانَ يقتاتُ منها هو وعيالُه ردَّها صدقةً على المسلمِينَ.

وكلُّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسلَ لم تُبعَثْ بجمعِ الدُّنيا وتوريثِها لأهليهم، وإنَّما بُعِثوا بالدَّعوةِ إلى اللهِ والجهادِ في سَبيلِه والعلمِ النّافعِ وتوريثِه لأُممِهم.

وفي مراسيلِ أبي مسلمٍ الخَولانيِّ(٤) عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «ما أوحى اللهُ إليَّ أن اجمعِ المالَ وكنْ(٥) منَ التّاجِرينَ، ولكن أوحَى إليَّ: أن سبِّحْ بحمدِ ربِّكَ وكُنْ منَ السَّاجِدِينَ، واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيكَ اليقينُ»(٦). خرَّجَه أبو نُعيمٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣) (٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وعنه عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٧٦)، ومسلم (١٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
مؤنة عاملي: نفقته، وفي ضبطها لغات متعددة غير هذه، منها: مَؤونة. ومنها: مُوْنَة.

(٣) أخرج ذلك البخاري (٢٧٣٩) من حديث عمرو بن الحارث رضي الله عنه، وذكر الدرع في البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) في حاشية (س): «اسمه عبد الله بن ثُوَب».

(٥) في (ض) و(هـ) و(ج): «أن أجمعَ المالَ وأكن» وفي المصادر: «وأكون».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٢٣١٦). وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٣١).
وأخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص: ٣٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.
والآية هي (٩٨ ـ ٩٩) من سورة الحجر.

وفي التِّرمذيِّ وغيرِه، عنِ ابنِ مسعودٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «ما لي وللدُّنيا؟! إنَّما مَثَلي ومثَلُ الدُّنيا كراكبٍ استظلَّ في ظلِّ شجرةٍ، ثمَّ راحَ وتركَها»[1].

* * *

فقولُه ﷺ: «إنَّ العلماءَ وَرثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ» فيه إشارةٌ إلى أمرَينِ:

أحدُهما: أنَّ العالِمَ الذي هو وارثٌ للرَّسولِ ﷺ حقيقةً، كما أنَّه وَرَّثَه علمَه فينبغي أن يُورِّثَ العلمَ كما وَرَّثَ الرَّسولُ العِلمَ، وتوريثُ العالِمِ العِلمَ هو: أن يُخلِّفَه بعدَه بتعليمٍ أو بتصنيفٍ، ونحو ذلكَ مما يُنتَفَعُ به بعدَه.

وفي «الصَّحيحِ» عنِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا ماتَ العبدُ: انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثٍ: عِلمٍ نافعٍ، أو صدقةٍ جاريةٍ، أو وَلَدٍ صالحٍ يدعو له»[2]، فالعالِمُ إذا علَّمَ عِلْمَه مَن يقومُ به بعدَه فقد خلَّفَ عِلمًا نافعًا وصَدقةً جاريةً، لأنَّ تعليمَ العِلمِ صدقةٌ، كما سبقَ عن معاذٍ وغيرِه، والذينَ علَّمَهم بمنزلةِ أولادِه الصَّالحِينَ يدعونَ له، فيجتمعُ له بتخليفِ عِلمِه هذه الثّلاثُ خِصالٍ.

والأمرُ الثّاني أنَّ مِن كمالِ ميراثِ العالِمِ للرَّسولِ عليه السَّلامُ: ألّا يُخلِّفَ الدُّنيا كما لم يُخلِّفْها الرَّسولُ ﷺ، وهذا من جملةِ الاقتداءِ بالرَّسولِ ﷺ وبسنَّتِه في زُهدِه في الدُّنيا وتقلُّلِه منها، واجتزائِه منها باليَسيرِ، كما كانَ سهلٌ التُّستَرِيُّ يقولُ: من علامةِ حُبِّ السُّنّةِ حبُّ الآخرةِ وبغضُ الدُّنيا، وألّا يأخُذَ منها إلّا زادًا وبُلغةً إلى الآخرةِ[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وقال: «حسن صحيح». وفي (س) و(ط): «بظل شجرة».

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٧٥٨، ١٠٥٠ ـ طبعة دار التراث).

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ: إنَّما العالِمُ الذي إذا أتيتَه في بيتِه فلم تجدْه قصَّ عليكَ بيتُه، رأيتَ حصيرَه للصَّلاةِ، ومصحفَه، ومِطْهرتَه في جانبِ البيتِ، ترَى أثرَ الآخرةِ[١].

وكانَ الفُضيلُ يقولُ: احذروا عالِمَ الدُّنيا لا يصدُّكم بسُكرِه. ثمَّ قالَ: إنَّ كثيرًا من علمائِكم زِيُّه أشبهُ بزِيِّ كِسرَى وقيصرَ منه بمحمَّدٍ ﷺ، إنَّ محمَّدًا ﷺ لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، ولكن رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه.

وكانَ يقولُ: العلماءُ كثيرٌ والحُكماءُ قليلٌ، وإنَّما يُرادُ منَ العِلمِ الحِكمةُ، فمَن أُوتِيَ الحكمةَ فقد أُوتِيَ خيرًا كثيرًا[٢].

وهكذا كانَ حالُ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ، كالحسنِ، وسفيانَ، وأحمدَ، اجتزؤوا من الدُّنيا باليسيرِ إلى أن خرجوا منها ولم يُخلِّفوا سوى العِلمِ، معَ أنَّ بعضَهم كانَ يلبَسُ لِباسًا حَسنًا، ويأكُلُ أكلًا متوسِّطًا بعيدًا منَ التَّقشُّفِ، كالحسنِ البَصريِّ، فإنَّه كان يأكلُ اللَّحمَ كلَّ يومٍ، وكانَ يشتري بنصفِ دِرهمٍ لحمًا، فيطبُخُه مرقةً طيِّبةً، فيأكلُ منه هو وعيالُه، ويُطعِمُ كلَّ مَن دخلَ عليه[٣]، وكانَ يلبَسُ الثِّيابَ الحسنةَ وهو معَ هذا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٣).

(٢) أخرج هذه الأقوال عن الفضيل: الآجري في «أخلاق العلماء» (ص: ٨٦) ووقع في مطبوعه تصحيف: «بسكره» إلى «بشكره»!، وأخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٢).

وقوله: «إن محمداً ﷺ لم يضع لبنة على لبنة...» مروي من حديث السيدة عائشة عند الطبراني في «الأوسط» (٣٢٤١). وروي عن الحسن البصري أيضاً كما سيأتي. قال ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» (٤/ ٣٠١ ـ ط عطاءات العلم) «فإن سَيْرَهم إنما هو على الشواهد، فمن لا شاهد له لا سير له، ولا طلب ولا سلوك. وأعظم الشواهد: شواهد صفات محبوبهم ونهاية مطلوبهم، وذلك هو العَلَم الذي رُفع لهم في السَّير فشمروا إليه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رُفع له عَلَم فشمر إليه».

(٣) أخرج ذلك ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٦٧).

أزهدُ النّاسِ في الدُّنيا[١]، وما زاحمَ على شيءٍ منها قطُّ، وكانَ النّاسُ إذا دخَلوا عليه خرَجوا من عندِه ولا يعُدُّونَ الدُّنيا شيئًا[٢]، وما رأَوا أشدَّ احتقارًا لأهلِ الدُّنيا منه، وكانوا يدخُلونَ عليه في مرَضِه يعودونَه، وليسَ في بيتِه إلّا سريرٌ مَرمُولٌ هو عليه، وليسَ فيه[٣] قليلٌ ولا كثيرٌ[٤]، حتَّى قالَ ابنُ عَونٍ: إنَّما بزَّ[٥] الحسنُ النّاسَ بالزُّهدِ في الدُّنيا، فأمّا العِلمُ فقد شُورِكَ فيه[٦].

وكانَ الحسنُ يقولُ: إنَّما الفقيهُ: الزّاهدُ في الدُّنيا، الرّاغبُ في الآخرةِ، المجتهدُ في العبادةِ، القائمُ بسنّةِ محمَّدٍ ﷺ[٧].

من رأى محمَّدًا فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضَعْ لَبِنةً على لَبِنةٍ ولا قَصَبةً على قَصَبةٍ، إنَّما رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه[٨].

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ أشدَّ تقشُّفًا في مَلبَسِه منَ الحسنِ، حتى كانَ مَن يراه، ولا يعرفُه يظنُّه منَ السُّؤّالِ[٩]، وكانَ معَ شدّةِ وَرَعِه إذا وَجَدَ الحلالَ أكلَ منه طيِّبًا وإذا

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٩/ ١٦٩) (٩/ ١٧٣). وانظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٥٨) عن أشعث.

(٣) في (س) و(ط): «في بيته».

(٤) «مرمول»: نسج وجهه بسعف النخل ولا وطاء فوقه. أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٤٨).

(٥) في (س) و(ط): «استبد»، وفي حاشية (س): «بدا». وفي (ج): «فاق» وكل ذلك تصحيف.

(٦) أخرجه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٠).

(٧) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٩).

(٨) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (١٥٩٦)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٤).

(٩) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٣٧).

لم يجِدْ حلالًا استفَّ الرَّملَ، وربَّما بقيَ ثلاثًا لا يطْعَمُ شيئًا معَ عرض النّاسِ عليه الأموالَ الكثيرةَ[١].

وكانَ إذا شبعَ منَ الحلالِ يزيدُ في عمَلِه، ويقولُ: أطعمِ الزنجيَّ وكُدَّهُ[٢]. وكانَ أزهدَ النّاسِ في الدُّنيا في زمانِه حتى كانَ يُتَعَزَّى بمجلِسِه عنِ الدُّنيا[٣]. ولم يكن السَّلاطينُ والملوكُ والأغنياءُ أذلَّ منهم في مجلِسِه، ولا الفقراءُ والمساكينُ أعزَّ منهم في مجلِسِه[٤].

وكانَ الخَوفُ قد غلَبَ عليه، فلمّا مرِضَ مرَضَ الموتِ حُمِلَ ماؤُه إلى طبيبٍ، فقالَ: ليسَ لهذا دواءٌ، هذا قد فتَّتَ الحزنُ والخوفُ كبِدَه[٥]. ويُقالُ: إنَّه لم يكنْ في زمانِه مَن هو أخوفُ للهِ منه[٦]، ولا مَن هيبةُ اللهِ في صدرِه أعظمُ منه. ولمّا ماتَ قالَ بعضُ العلماءِ: معشرَ القراء: كُلُوا الدُّنيا بالدِّينِ فقد ماتَ سفيانُ[٧]. يعني: ما بقِيَ بعدَه أحدٌ يُسْتَحيى منه.

وأمّا **الإمامُ أحمدُ** فكانَ أشدَّ منهما تقشُّفًا في عَيشِه وأكثرَ صَبرًا على خُشونةِ العَيشِ والقِلّةِ، وكانَت معيشتُه من حَوانيتَ له وَرِثَها من أبيه[٨]، ويأخُذُ أجرتَها في الشَّهرِ دونَ عشرينَ درهمًا، وماتَ ولم يُخلِّفْ إلّا قِطَعًا في خِرقةٍ له كانَ وزنُها دونَ

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٦٣) (٧/ ٦٧).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٨٩)، وكُدَّه: أتعِبْه في العمل.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٥٧) (٧/ ٨٢).

(٤) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٦٥) (٧/ ٤٢).

(٥) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ١٤، ٢٣).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٩٢) عن أبي أسامة.

(٧) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٥٤ ـ ٥٥) عن العمري.

(٨) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٣٠٦) و(ص: ٥٠٠).

نصفِ دِرهمٍ[١]، وتركَ عليه دَينًا قُضِيَ عنه من أُجرةِ حوانيتِه[٢]، معَ كثرةِ ما كانَ يَرُدُّ على الخُلفاءِ منَ الجوائزِ والصِّلاتِ.

وكانَ **يحيى بنُ أبي كثيرٍ** منَ العلماءِ الرَّبّانيِّينَ المتوسِّعِينَ في العِلمِ، وكانَ يقالُ: إنَّه لم يبقَ على وجهِ الأرضِ مثلُه[٣]، وكانَ حسنَ الثِّيابِ حسنَ الهيئةِ، فلمّا ماتَ خلَّفَ ثلاثينَ دِرهمًا كفَّنوه بها[٤].

وكانَ محمَّدُ بنُ أسلمَ الطُّوسيُّ من العلماءِ الرَّبّانيِّينَ الزُّهادِ، فماتَ ولم يخلِّفْ سوى كسائِه ولِبْدِه فوضعوهما على نَعْشِه، وإناءٍ للوضوءِ تصدَّقوا به، فكانَ النِّساءُ على السُّطوحِ يقُلْنَ في جِنازتِه: هذا العالِمُ الذي خرَجَ منَ الدُّنيا وهذا ميراثُه الذي على جِنازتِه، ليسَ مثلَ علمائِنا هؤلاءِ عبيدِ بطونِهم يجلِسُ أحدُهم للعِلمِ سنتَينِ أو ثلاثًا فيشتَرِي الضِّياعَ ويستفيدُ المالَ[٥].

وقالَ العبّاسُ بنُ مَرْثَدٍ: سمعتُ أصحابَنا يقولونَ: صارَ إلى الأوزاعيِّ أكثرُ من سبعِينَ ألفَ دينارٍ ـ يعني منَ السُّلطانِ من بني أمية وبني العبّاسِ ـ فلمّا ماتَ ما خلَّفَ إلا سبعة دنانيرَ بقيَت من عطائِه وما كانَ له أرضٌ ولا دارٌ، قالَ العبّاسُ: نظرْنا فإذا هو أخرجَها كلَّها في سبيلِ اللهِ والفقراءِ[٦].

* * *

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٥٦٤).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٥٠٠).

(٣) قاله أيوب السختياني، أخرجه الطحاوي في «معاني الآثار» (٤/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٦٧).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٤١).

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ١٩٨).

وقد وصفَ اللهُ تعالى في كتابِه العلماءَ بأوصافٍ:

منها: الخشيةُ والخشوعُ والبكاءُ، كما سبقَ ذكرُه.

ومنها: احتقارُ الدُّنيا والتَّزهيدُ فيها، كما قالَ تعالى في قصّةِ قارونَ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

قيلَ للإمامِ أحمدَ: إنَّ ابنَ المبارَكِ قيلَ له: كيفَ يُعرَفُ العالِمُ الصّادقُ؟ فقالَ: الذي يزهَدُ في الدُّنيا ويُقبِلُ على أمرِ آخرتِه، فقالَ أحمدُ: نعَم، هكذا ينبغي أن يكونَ[1].

وكانَ الإمامُ أحمدُ يُنكِرُ على أهلِ العِلمِ حبَّ الدُّنيا والحرصَ على طلَبِها[2].

واعلمْ أنَّه إنَّما أهلَكَ أهلَ العِلمِ، وأوجبَ إساءةَ ظنِّ الجهّالِ بهم، وتقديمَ جهّالِ المتعبِّدِينَ عليهم: ما دخلَ عليهم منَ الطَّمعِ في الدُّنيا.

وقد رأى عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه رجلًا يقُصُّ فقالَ له: لَأسألَنَّكَ مسألةً فإن خرجْتَ منها وإلّا علوتُكَ بهذهِ الدِّرّةِ، فقالَ له: سَلْ يا أميرَ المؤمنِينَ، فقالَ له: ما ثباتُ الدِّينِ وزَوالُه؟ فقالَ له: ثباتُ الدِّينِ الوَرعُ، وزوالُه الطَّمعُ. فقالَ له: قُصَّ فمثلُكَ يَقُصُّ[3].

---

(١) سأله المروذي للإمام أحمد، وهو في «الورع» (٤٠٠) له.

(٢) قال الإمام أحمد: «عزيز عليَّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن». أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص: ٢٧٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١٣٦)، وابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» (٢٨ ـ ٢٩).

وهذا السُّؤالُ من عليٍّ رضيَ اللهُ عنه لهذا القاصِّ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن نشرَ عِلمَه للنّاسِ، وتكلَّمَ عليهم ينبغي أن يكونَ وَرِعًا عمّا في أيديهم، غيرَ طامعٍ في شيءٍ من أموالِهم ولا أرزاقِهم، ولا اجتلابِ قلوبِهم إليه، وإنَّما ينشُرُ عِلمَه للهِ عزَّ وجلَّ، ويتعفَّفُ عنِ النّاسِ بالوَرَعِ.

وفي سننِ ابنِ ماجَه عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: لو أنَّ أهلَ العِلمِ صانوا العِلمَ ووضعوه عندَ أهلِه لسادوا أهلَ زمانِهم، ولكنَّهم بذلُوه لأهلِ الدُّنيا لينالوا به من دُنياهم فهانوا عليهم، سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقولُ: «مَن جَعَلَ الهُمومَ همًّا واحدًا همَّ آخرتِه كفاه اللهُ همَّ دُنياه، ومَن تشعَّبَت به الهُمومُ في أحوالِ الدُّنيا لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتِها هلَكَ»[1].

وقالَ أبو حازمٍ الزّاهدُ: لقد أتَتْ علينا بُرهةٌ من دَهرِنا وما عالِمٌ يطلُبُ أميرًا[2]، وكانَ الرَّجلُ إذا عَلِمَ اكتفَى بالعِلمِ عمّا سِواه، فكانَتِ الأمراءُ تغشاهم[3] وتقتبِسُ منهم. فكانَ في ذلكَ صلاحٌ للفَريقَينِ: للوالي والمولَّى عليه، فلمّا رأتِ الأمراءُ أنَّ العلماءَ قد غشَوهم وجالَسوهم، وسألوهم ما في أيديهم، هانوا عليهم، وتركوا الاقتباسَ منهم[4]، فكانَ في ذلكَ هلاكُ الفَريقَينِ الوالي والمولَّى عليه.

ودخلَ أعرابيٌّ البَصرةَ فقالَ: مَن سيِّدُ أهلِ هذه القريةِ؟ قالوا: الحسنُ. قالَ: وبِمَ سادَهم؟ قالوا: احتاجَ النّاسُ إلى علمِه واستغنى هو عن دُنياهم[5].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧)، (٤١٠٦).

(٢) في (ج): «من أمير».

(٣) في (س) و(ط): «تغشاهم في منازلهم».

(٤) أخرج معناه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٤٢). وفي (س) و(ط): «وتركوا الأخذ عنهم والاقتباس منهم».

(٥) أخرجه بأطول من هذا: الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص: ٢٤٤).

وكانَ الحسنُ يقولُ: إنَّ لكلِّ شيءٍ شَينًا، وشَينُ العلم الطَّمعُ[١].

وقالَ: مَن ازدادَ عِلمًا فازدادَ على الدُّنيا حِرصًا لم يزدَدْ من الله إلا بُعدًا، ولم يزدَدِ اللهُ له إلّا بُغضًا[٢].

واجتازَ الحسنُ يومًا ببعضِ القرّاءِ على أبوابِ بعضِ السَّلاطِينِ، فقالَ: أقرَحْتُم جِباهَكم وفَرْطَحتُم نِعالَكم، وجئْتُم بالعِلمِ تحملونَه على رِقابِكم إلى أبوابِهم فزَهِدوا فيكم، أَما إنَّكم لو جلَسْتُم في بيوتِكم حتى يكونوا هم الذينَ يُرسِلون إليكم لكانَ أعظمَ لكم في أعيُنِهم، تفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بينَ أضلاعِكم[٣].

وفي روايةٍ: تفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بينَ أرواحِكم وأجسامِكم، فَرْطَحتُم نِعالَكم، وشمَّرتُم ثيابَكم، وجزَزتُم شُعورَكم. فضحتم القُرّاءَ فضَحَكم اللهُ، أَما واللهِ لو زَهِدتُم فيما عندَهم لَرغِبوا فيما عندَكم، ولكنَّكم رَغِبتُم فيما عندَهم فزَهِدوا فيما عندَكم، أَبْعَدَ اللهُ مَن أَبْعَدَ[٤].

وفي الجملةِ: فمَن لا يصونُ نفْسَه لا يَنتَفِعُ بعلمِه، ولا يَنتَفِعُ غيرُه به.

قالَ الشّافعيُّ: مَن قرأَ القرآنَ عَظُمِت قيمتُه، ومَن كتبَ الحديثَ قَوِيَت حُجّتُه، ومَن تفقَّه نَبُلَ مِقدارُه[٥]، ومَن تعلَّمَ العربيّةَ رَقَّ طبعُه، ومَن تعلَّمَ الحِسابَ جَزُلَ رأيُه، ومَن لم يصُنْ نفْسَه لم ينفَعْهُ عِلمُه[٦].

---

(١) لم أجد هذا عند غير المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٧٩) (٣٥٨)، وفي «الزهد» (١٦٩) (٣٣٧).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ١٣٧)، وفي المطبوع منه: «أفرختم حمائمكم وفرطحتم نعالكم»!. وفرطحة النعال: كناية عن إفسادها بانبساطها وتوسعها لكثرة لبسها والسير فيها.

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٤٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠).

(٥) في (ض) و(س) و(ط): «قدره».

(٦) أخرجه البيهقي في «المدخل» (١٦١٨).

وفي هذا المعنى يقولُ أبو الحسنِ عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجرجانيُّ رحمَه اللهُ أبياتَه المشهورةَ السّائرةَ:

يقولونَ لي فيكَ انقِباضٌ وإنَّما ... رَأوا رجلًا عن مَوقِفِ الذُّلِ أحجَما

أرَى النّاسَ مَن داناهمُ هانَ عندَهم ... ومَن أكرَمَتْه عِزّةُ النَّفسِ أُكرِما

ولم أقضِ حقَّ العِلمِ إن كانَ كُلَّما ... بدا طَمَعٌ صيَّرتُه ليَ سُلَّما

إذا قِيلَ هذا مَنهلٌ قُلتُ قد أَرَى ... ولكنَّ نفْسَ الحُرِّ تحتَمِلُ الظَّما

ولم أبتَذِلْ في خِدمةِ العِلمِ مُهجَتي ... لِأَخدُمَ مَن لاقَيتُ لكِنْ لِأُخدَما

أَأَشقَى به غَرسًا وأَجنِيهِ ذِلّةً ... إذًا فاتِّباعُ[1] الجَهلِ قد كانَ أحزَما

ولو أنَّ أهلَ العِلمِ صانوه صانَهم ... ولو عظَّموه في النُّفوسِ لَعَظَّما[2]

ولكنْ أهانوه فهانوا[3] ودَنَّسوا ... مُحيّاهُ بالأطماعِ حتّى تجَهَّما[4]

الحرصُ على الدُّنيا والطَّمعُ فيها قبيحٌ، وهو منَ العلماءِ أقبحُ، فإن كانَ بعدَ نزولِ الشَّيبِ فهو أقبحُ وأقبحُ.

لَبِسَ بعضُ العلماءِ[5] منَ التّابعِينَ ثِيابَه، وتَهيّأَ ليمضِيَ لبعضِ الملوكِ، فأخذَ

---

(١) في (م) و(هـ) و(ج): «إذًا لاتّباعُ».

(٢) الضبط من فوائد النسخة (س)، وفي حاشيتها: «يعني عظَّمهم». وهذا موافق لما ذكره الأخ الشيخ عبد القادر الخطيب في تعليقه على «خطبة الكتاب المؤمل» لأبي شامة (ص: ١٣٧) عند ذكر تلك الأبيات.

(٣) في (م): «أذلوه فهان»، وفي (ض): «ذلوه فهان». وصوابها: «أذالوه». بمعنى أهانوه.

(٤) «ديوان القاضي الجرجاني» (ص: ١٢٧).

(٥) هو شهر بن حوشب، والخبر في «العمر والشيب» لابن أبي الدنيا (٦٧).

المرآةَ فنظر فيها، فرأى في لحيتِه طاقةَ شيبٍ، فقالَ: السُّلطانُ والشَّيبُ! ثمَّ نَزَعَ ثيابَه وجلَسَ[١]:

قد آنَ بعدَ ظلامِ الجَهلِ إبْصارِي ... للشَّيبِ صُبحٌ يُنادِيني بإسْفارِي

ليلُ الشَّبابِ قصيرٌ فَاسْرِ مُتَّئِدًا ... إنَّ الصَّباحَ قُصارى المدلِجِ السّاري

كم ذا اغترارِيَ بالدُّنيا وزُخرُفِها ... أَبْني بِناها على جُرْفٍ لها هارِ

دارٌ مآثِمُها تبقى ولَذَّتُها ... تفنى ألا قُبِّحَتْ هاتيكَ مِن دارِ

ليسَ السَّعيدُ الذي دُنياهُ تُسعِدُه ... إنَّ السَّعيدَ الذي ينجو منَ النّارِ

أصبحتُ من سيِّئاتي خائفًا وَجِلاً ... واللهُ يعلَمُ إعلاني وإسراري

إذا تعاظمني ذَنْبي وآيَسَني ... رَجوتُ عَفوَ عظيمِ العَفوِ غَفّارِ[٢]

آخره، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً[٣].

---

(١) زاد في (س) و(ط): «وأنشد شعرًا»، وليس هو قائل الأبيات.

(٢) الأبيات للوزير ظهير الدين أبي شجاع محمد بن الحسين، وهذه الأبيات من قصيدة ذكرها له العماد الأصبهاني في «خريدة القصر» (١/ ٧٩ ـ ٨٠). وفي (س) و(ط): «تعاظمت ذنبي ثم آيسني».

(٣) ثم جاء في (م): «علقه لنفسه العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن محمد بن خضر حامداً لله ومصلياً على محمد ﷺ، عفا الله عنه وعن والديه، ولمن دعا له ولجميع المسلمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل...».

وفي (ض): «وفرغ منه كاتبه أسير ذنبه، المفتقر إلى رحمة ربه، عبده وابن عبده، إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين، وكان ذلك في شهر ربيع الأول (سنة ١٢٥٤)، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم».

وفي (هـ): «آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً =

= كثيراً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. تمت هذه النسخة يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة (سنة ١٣١٦)».

وفي (س): «تمت». وفي الحاشية: «بلغ مقابلة وتصحيحاً على نسختين».

وفي (ط): «تمت. آخره والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين».

وفي (ج): «آخرُه وصلَّى اللهُ وسلم على سيِّدِنا ونبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدِّينِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى وكما ينبغي لوجهِه وعزِّ جلالِه، ولا إلهَ غيرُه ولا ربَّ لنا سِواه، ولا نعبدُ إلّا إيّاه ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ. غَفَرَ اللهُ لمؤلِّفِه ولِكاتبِه ولقارِئِه ولوالِديهم ولإخوانِهم المسلمِينَ ولمَن دعا لهم بالمغفِرةِ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ. ١٠ ص (سنة ١٣٣٩)». ويريد بـ(ص): صفر.